منصور عبد الرحمن

المخلوقات الأخرى

(قصص)



الفارابي

المخلوقات الاخرى

« قصص »

منصور عبد الرحمن

المخلوقات الاخرى

« قصص »



الكتاب : المخلوقات الاخرى « قصص »

المؤلف : منصور عبد الرحمن

الناشر : دار الفارابي - بيروت ، لبنان

ص.ب ۳۱۸۱ / ۱۱

الطبعة الاولى

ايلول / سبتمبر ۱۹۹٥

■ القصة.. متعة اولا ■

محمد حسن الحربي

عرفت منصور عبد الرحمن في بداية الثمانينات، تحديدا ٧٩-١٩٨١، كان متحمسا ليس للكتابة فقط انما للحياة ككل، ممتلئا بالاحلام والطموحات، وكان يومها يكتب مقالات صحفية وينشرها في المطبوعات المتوفرة محليا آنذاك، محورها العام كان انتقاد اوجه القصور في المجالات الاجتماعية والاقتصادية وكذلك السياسية في بعض المؤسسات التي كانت حديثة التشكل وقتها، وكان لمقالاته المنشورة صدى طيب لدى قرائها على اختلاف اهتماماتهم ومراحلهم العمرية، فقد كان يغلب عليها اسلوب السخرية الذي يشد القارىء ويجعله يكمل قراءتها حتى النهاية، في غمرة من الضحك والالم والفهم والتعاطف،وبذلك خلق له قاعدة لا بأس بها في الساحة المحلية في تلك الفترة التي لم تطل كثيرا اذ اختفت كتاباته فجأة لظروف قد تطول تفاصيلها لو تحدث المرء عنها.

ان فترة الثمانينات، في الحقيقة، هي علامة مضيئة بالنسبة للساحة الثقافية والاعلامية المحلية يعرفها العديد ممن شهدها مهما كان موقعه، حيث برزت في تلك الفترة اشياء عديدة واخذت شكلها شبه المكتمل، الى جانب بروز اسماء عديدة في مجال الكتابة الادبية والصحفية ايضا، بل تميزت تلك الفترة بالصخب الثقافي الايجابي الذي افضى فيما بعد الى الفرز في الاسماء والعطاء الادبي

عبر عملية طبيعية وهادئة في ايقاعها، اتسقت في ذلك مع ظروف اقتصادية واجتماعية شكلت ملامح المجتمع الذي نشهده اليوم في الامارات العربية المتحدة.

وما الاسماء الادبية في المجالات كافة كـ (القصة والشعر والاعمال الكتابية الاخرى) التي تحتفظ بحضورها بشكل او بآخر في الساحة الثقافية، وقد انطلق بعضها من محليته الى المحيط العربي، سوى تلك التي بدأت في الثمانينات، سواء قبل او بعد ذلك بقليل لا يغير من التحديد شيئا، ولا يزال البعض يتحدث عن تلك الفترة بحميمية وحنين قويين في سياق حديثه عن الواقع الثقافي وسلبيته على الاصعدة كافة، ومن نافلة القول ان لكل مرحلة تاريخية ظروفها الموضوعية التي يجب معرفتها قبل الحديث عن ايجابية او سلبية، فما شكل الايام المعاشة الا نتيجة لاشكال الايام التي سبقتها.

فمنصور عبد الرحمن ينتمي حقيقة الى تلك الفترة ــ فترة الثمانينات ــ من حيث تشكله الادبي واكتمال ادواته الفنية في الكتابة عامة.

بل قد يذهب المرء الى ابعد من ذلك ليذكر نقطة مهمة لدى منصور عبد الرحمن وهي انه فخور جدا ان كتاباته، مهما كانت طبيعتها (وهي عادة ما تكون لاذعة وفي معظم، ان جاز التعبير) لا ترحب بها مطبوعاتنا الحاضرة بسبب جرعتها القوية التي تتعدى الخطوط الحمراء في احيان كثيرة، وهي لا تفسر هنا بأنه لا يمتلك القدرة على التكيف مع الواقع الجديد والمتجدد دائما ، بل تفسير بأنه يرى الى هذا الواقع من حوله انه خطاء او تكثر فيه الاخطاء وبالتالي فهو ليس جديرا بان يتكيف المرء له او معه، وعلى هذا الاساس يعتبر الصمود هنا او الثبات تميزا منحازا الى الجهة الصحيحة والسليمة لا العكس .

■■

في العام ١٩٨٤ هاتفني منصور عبد الرحمن وطلب زيارتي، وان لم يكن ممكنا، فعلي قبول دعوته، فلبيت وزرته في منزله. فناولني مغلفا ضخما وطلب مني قراءته بدقة وعناية للتباحث فيما بعد في مدى جودته وصلاحيته للطباعة والنشر، وفور عودتي بدأت قراءته، وما هي سوى ايام قليلة حتى اجتمعنا لبحث الموضوع وقد بلورت فكرة شاملة عن المادة التي كانت عبارة عن (قصص قصيرة ومقالات ومادة شعرية).

قلت له يومها ان المادة جيدة من غير شك، وان احتاجت شيئا فهي تحتاج الى مصحح لغوي، فما من كاتب مهما بلغت قوته الا وعليه ان يخضع مادته لذلك (في اوروبا تشكل لجنة دار النشر للنظر في اعادة تحرير المادة المراد طباعتها لكن هذا التقليد الحضاري لا يزال غير موجود لدينا)، وقد اقنعته، او هكذا تهياء لي، ان يهتم بالمادة القصصية ويؤجل مادة المقالات العامة والشعر كذلك الي وقت لاحق، وافترقنا على ان يبدأ اجراءات طباعة القصص، لكني فوجئت بصمته الطويل، فلقد مرت اشهر وسنوات طويلة ولم يجد جديد بخصوص المادة القصصية، ولم يدفعني فضولي لمعرفة الاسباب حينها فصمتُ انا الآخر، لكننا لم ننقطع عن بعضنا البعض فحتى في الاسفار، كنت افضل المرور عليه حيث يقضي اغلب اجازاته.

منذ ايام قليلة من شهر مايو هذا العام (١٩٩٥) اتصل منصور عبد الرحمن وفي صوته تصميم وحماس قويان يطلب مقابلتي من اجل الحديث عن قصصه القديمة الجديدة، فسررت كثيرا، لكني فوجئت ان القصص القديمة قد تغير بعضها اضافة وتنقيحا، وزيد عليها

بعض جديد لم اكن قد اطلعت عليه قبلا، الى جانب ذلك اطلعني على عدة مشاريع كتابية يعدها للنشر لكن ليس قبل مجموعته القصصية هذه .. لقد ابتهجت في الحقيقة انه بعد ما يقارب العشر سنوات هاهو صاحبي يتجدد حماسة ولكأنه لم يعتره ضجر يوما بفعل الحياة وانشغالاتها المختلفة واحداثها وقلاقلها الكبيرة.



الكتابة الساخرة في الوطن العربي قليلة عامة، ولعل السبب الرئيسي وراء ذلك هو صعوبتها، والكتاب الساخرون يكادون يعدون على اصابع اليد الواحدة، وقد يعرف المرء كتاب اعمدة صحفية ساخرين، لكن في مجال القصة القصيرة فهم بالكاد يذكرون الا من برز منهم مثل الاديب الكبير المرحوم حسيب كيالي (من سوريا)، والاديب القاص خطيب بدلة (من سوريا ايضا) اللذين يعرفهما القارىء في الساحة الثقافية الخليجية لاتصالهما بها بشكل مكثف عبر المطبوعات السيارة وبعض المجلات الاسبوعية.

ان السخرية هي في الحقيقة مقلوب الحزن والبكاء، ومن السهل ان تبكي الآخرين لكن من الصعب، كما اتفق، ان تجعلهم يضحكون، وعلى انفسهم خاصة، بألم حاد.

وهي ضرب من الكتابة التي تحتاج الى نسبة عالية من خفة الدم، وقدرة مدهشة على الامساك باللقطة اللامعة السريعة وتسجيلها ومعالجتها، من بعد، وتقديمها باسلوب شيق وجميل.

واذا كانت بعض القصص تعمد الى تشويه ومسخ شخصياتها كما في قصص كافكا وغيره من الكتاب بغية تأهيلها للتمتع بقدرات خارقة لا يستطيع ان يمتلكها الانسان السوي والطبيعي لتقوم

بوظيفتها الاجتماعية في اطار احتجاجي على الواقع القائم، فان اللجوء الى الحيوانات وتنطيقها في القصص يعني ان الواقع المعاش وصل الى درك مأساوي لا يحتمله بشر حتى اولئك الذين تم مسخهم لانتزاع موجبات منطقية لتمردهم وانتقالهم من حالة الهمس والغضب الصامت الى الجهر والحث على الفعل بغية التغيير نحو الافضل.

لا تدعي هذه المقدمة الاحتفائية الكتابة النقدية لهذه القصص، الا انها قد تذهب في الملاحظات الانطباعية عميقا الى حد ما يجعلها تصلح لان تكون مفاتيح لاهل النقد عندما تقع المجموعة بين ايديهم الامينة بلا شك وهم كثر في الساحة الثقافية العربية.

بالتأكيد ان قصص منصور عبد الرحمن ليست كقصص «كليلة ودمنة» لعبدالله بن المقفع، وليست تقترب بشكل او بآخر من بعض قصص كافكا كقصة «الصرصار» مثلا، او قصص استاذنا حسيب كيالي، رحمه الله ولا احد يجرؤ على القول انها كذلك على الاطلاق، بيد ان الجرأة تكمن في القول ان هذه القصص تقترب بهدفها من تلك القصص ومن غيرها مما لم يقع في ايدينا الى الآن .

ان حيوانات منصور عبد الرحمن مثقفة وتمتلك وعيا اجتماعيا دقيقا، ولديها القدرة الفائقة على رصد الواقع باصعدته كافة: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وحتى الثقافية والفكرية.

قد تخلو كتابته للقصص من تقنية قصصية حديثة وغيابها في الحبكة تحديدا، الا انها تأخذ صلاحيتها من طريقة السرد وتدفقه بحيث لا يشعر القارىء للحظة ان المتحدث حيوان وهذه ميزة تسجل لصالح المجموعة.

وبالاستغراق في قصص المجموعة التي تتعدى العشرين قصة منتقاة بعناية من قصص عديدة للكاتب يشعر القارىء انه في مجتمع من المخلوقات غير الآدمية يوازي في واقعيته ومنطقه الواقع البشري القائم ويقوم بذاته وتكوينه وينفصل في الوقت

نفسه عن المجتمع البشري الذي نعرف، هذا الشعور مؤشر نجاح في الحقيقة، ويدل على كيف ان الكاتب استطاع وعبر حيوية القضايا المطروحة على لسان الحيوان، ان يجعل القارىء ينتقل من تركيزه على المتحدثين الى التركيز على الموضوع، مسقطا بذلك اهمية معرفة المتحدث، وهو امرصحي جدا له علاقة بلعبة الكتابة القصصية عامة.

هذه القصص التي بقيت لدى مؤلفها منصور عبد الرحمن عشر سنوات او اكثر تجعل القول بأن «الساحة الثقافية المحلية في الامارات خالية من اسماء جديدة ومن نتاج جديد» ليس دقيقا ويحتاج الى تثبيت عميق، ولا يجب اطلاق الاحكام القاطعة،فهناك دائما ما هو جديد لكنه رهن ظروف الكاتب الشخصية من جهة، ورهن الظروف الاجتماعية الموضوعية من جهة اخرى والتي يعرفها بالتأكيد المؤلف ومن زواياه الخاصة، قبل اي احد آخر مهما اجتهد.

كل ما ورد في هذه التقدمة المتواضعة لا يعني دفاعا عن المجموعة القصصية التي بين ايدينا، انما هدفت هذه التوطئة الى اضاءة بعض الجوانب التي رأيت ان الحديث عنها واجب لا بد من ادائه بحب واخلاص.

مقطع القول، ان القصة الناجحة هي التي تشعرك بالمتعة من دون الالتفات او الاهتمام بأسباب ذلك، وهذا ما وجدته على الاقل في قصص منصور عبد الرحمن.

.. اتمنى له الاستمرار وتحمل ما قد يواجهه من نقد بناء.

الشارقة ــ صيف ١٩٩٥

تساؤلات ضفدع

عقلية الضفدع لم تتخلف عن مواكبة مسيرة تطور الحياة تلقائياً لمجرد كونه ضفدعاً بسيطاً يقفز في المياه الراكدة، ولكن طبيعة محيطه المعيشي ساعدت كثيراً على ذلك التطور.

قرر الضفدع المغلوب على أمره الذهاب الى المدرسة لتقييم تطلعاته نحو آفاق أوسع وتقوية دائرة معارفه في مجالات العلم والادب وكتابة الشعر. القضاء على العادات السيئة كالتخلص من عقلية متخلفة مثلا يتطلب الاجتهاد والمثابرة وسهر الليالي الطويلة والتحلي بالصفات الحميدة. ولكن ما هي الصفات الحميدة؟ سؤال لا يفارق ذهن الضفدع. وكما قالت له أمه ذات مرة إنك ستعرف كل شيء عندما تذهب الى المدرسة، وستجيب على هذا السؤال الذي يؤرقك، وستعرف كل الاجوبة عن كل الاسئلة حفظاً، وستكون طبيباً ماهراً بعد تخرجك من الثانوية العامة. لم يملك الشجاعة الكافية ليخبر أمه أن عقليته متخلفة حسب مجاراته واحتكاكه ومعايشته للأوضاع السائدة. والحقيقة تقال كما قال الضفدع عن نفسه إن مشكلته الرئيسية ليست في عجزه عن استيعاب كل ما هو جديد، ولكن لب المشكلة التي تصادفه في حياته هي خوفه الشديد من غضب أمه وفقدانها لأعصابها. وكذلك عجزه الشامل عن خلق لغة حوار ديمقراطية لا تشمل التشابك بالأيدي والأرجل، وتؤدي الى التواصل والتفاهم بين المجموعات والافراد.

بعد الاستفسار عن أوراقه الثبوتية في المدرسة والتي تدل على وطنيته، لأن الوطنية تقاس بورقة اذا فقدتها فقدت وطنيتك، قرروا قبوله. لأنه اذا لم يكن كذلك فتلك مصيبة، ويا لها من مصيبة تحرمك من أحقيتك في الوجود ومعاملتك كوافد من الدرجة الثالثة في مجتمع خليجي.

التزم بالعادات والتقاليد حسب أوامر وتعليمات السيد الناظر الذي قال إن من أهم الشروط الالتزام بالعادات والتقاليد ولو كانت سيئة، والتقيد بالسلوك ولو فقط في المدرسة. شعارنا، «لا مناقشة بين الطالب والمدرس بعد اليوم»، ومن القواعد المتعارف عليها مهما حدث فالطالب دائما على خطأ. الجميع يصغي بخشوع خوفاً من الوقوع في مصيدة المتعارف عليه، وخصوصا ان الوضع الذي يمر على أمتنا حساس ولا يتحمل مزيداً من التصريحات وإثارة البلبلة في مجتمع آمن يسعى أفراده ويناضلون للحصول على مساكن شعبية.

بعد إجازة نصف السنة بدأ الضفدع يراجع حساباته السابقة وينتقد معاملات أساتذته ويتذمر من المنهج التعليمي والاسلوب وتأخر الكتب والادارة البيروقراطية وشمولية الفوضى.

أصبح الضفدع في وضعية محرجة، فقرر الانسحاب من الدوري الدراسي العام، لأنه اذا استمر في مثابرته المدرسية سيفقد عقليته المتخلفة، وهذا بدوره شيء جميل يسعد كل مواطن صالح يحب وطنه، ولكن وضعيته المحرجة تكمن في أنه اذا فقد عقليته المتخلفة فسيكسب بدلاً منها عقلية التبعية، فأي منهما أسوأ؟ تساءل الضفدع قائلاً: ماذا دهاني؟ لأنه يعرف جيداً حتى

ولو كان بعقلية متخلفة، ان عقلية التبعية تؤدي الى عبادة الشخص وتحجيمه.

وفعلاً، اتخذ قراراً لا رجعة عنه يعلن انسحابه من الدوري المحلي ويطالب ببعثة الى الخارج، كي لا يكون إنساناً تابعاً، وإنما منتجا مستقلا في آرائه وتطلعاته واتخاذ قراراته المتعلقة به دون تدخل خارجي.

يكره الاحتفاظ بعقليته المتخلفة لأن مساوىء هذه العقلية كثيرة، ولذا لا بد من إيجاد عقلية منهجية سليمة تؤهله للتعبير عن آرائه وبما يجول في خاطره وبناء نفسه على أحدث الوسائل العصرية. الوسيلة المتاحة له حاليا بموافقة الاهل والاقارب والجيران الكبار هي قراءة الصحف الخاضعة للرقابة الصارمة ومشاهدة التلفزيون والاقتداء بالصفات الحميدة. تلك الصفات ذاتها التي ما زال يبحث عن جواب لها بعد أن فشل في الحصول عليه في أروقة المعاهد التعليمية. أتطلبون مني المحافظة على عقليتي الحالية، وعندئذ تقولون عني «يا حلاوة هذا الضفدع المهذب»، وحين أكون صريحا مع نفسي ومجتمعي ساعتها تقولون «إنه لايتحلى بالصفات الحميدة».

دخل المدرسة وهو يبحث عن جواب لمسألة الصفات الحميدة بناء على نصيحة والدته ولكنه ترك المدرسة وهو مازال يبحث عن حل شامل لهذه القضية، وفي ذهنه سؤال آخر يؤرقه وهو «ما هو المتعارف عليه الذي كان المدرس يتحدث عنه بكثرة وانفعال؟».

****

الوعل يقود مظاهرة

بعد تزايد سقوط الضحايا من الجانبين قرر الجانب الحيواني التجمع والخروج في مظاهرات سلمية تطوف الشوارع الرئيسية والحدائق العامة تنادي بوقف نزيف حمامات الدم، والتوصل الى حل يرضي الطرفين. وذلك بعد تقاعس حكومة الطرف الثاني وموقفها الحيادي من هذه الحرب الطاحنة التي أكلت المئات بل الآلاف من خيرة شباب وبنات هذه الأمة. هذا ما طالبت به الحيوانات الغاضبة في مظاهراتها التي جرت مؤخرا تحت حماية رجال الشرطة والأمن العام، في جو مسالم لم يتخلله الشغب إلا عندما أرادت الزرافة التطاول على أملاك الشعب والأموال العامة.

قامت الحيوانات بتشكيل وفد يمثلها في اجتماع طارىء لم يحضّر له مسبقا، وتمت الموافقة على تشكيل الوفد برئاسة سعادة الوعل الضاحك وعضوية كل من القط المرقط والدب الصحراوي ومشاركة احدى عشرة شخصية بارزة في المجتمع الحيواني.

أما وفد الطرف الثاني فقد واجه الصعوبات الروتينية كما هي العادة في البحث عن المندوب السامي الذي يمثله في الاجتماع، ولكنه تدبر أمره في الثواني الاخيرة حين أرسل من يمثله دون الكشف عن اسمه وهويته، وذلك لضرورة المتطلبات الامنية.

تم عقد الاجتماع الطارىء في جو أخوي ساده الحب والإخاء، وبما أن الجانب الحيواني هو الذي دعا لهذا الاجتماع، فكانت له

بداية الكلمة ورئاسة الجلسة الصباحية.

الوعل: اطلب من الحاضرين الوقوف دقيقة حداد على روح أخينا الجمل الذي استشهد في نهاية الاجازة الاسبوعية.

بدأ الجلسة بتوبيخ أعضاء الطرف الثاني الذين يقودون مركباتهم الحديدية بطيش واهمال مما سبب لنا نقصاً في النسل لم تشهد له البلاد مثيلاً. ومن سوء الحظ أن أصدقاءنا الجمال تغيبوا عن اجتماعنا الطارىء مع العلم بأن هذا الاجتماع قد عقد إكراماً لخاطرهم وحفاظاً على سلامتهم، فنعتذر نيابة عنهم.

يسرنا أن نعلن في الصحافة المحلية والاذاعة والتلفزيون عن امتناننا الفائق لتقديركم الشديد لزميلنا الجمل. لا نشكو ولا نتذمر أبداً من سياسة حكومتكم الرشيدة بهذاالخصوص، فمنحه وسام الشرف هو شرف لنا جميعاً، إلا أننا أيها السادة ننبهكم لمدى الخطر الذي تسببونه لنا دون تمييز بين ذكر وأنثى.

نحن لسنا مثلكم.. فحياة الأنثى عندنا لا تقل أهمية عن حياة الذكر، فكما سمعنا عن سياسة مجتمعكم، ان قيمة التأمين على حياة الانثى تقل كثيراً عن قيمة التأمين على حياة الذكر. إنه حقاً لشيء يؤسف له، فنحن لا نعمل إلا والأنثى معنا.. إن النساء ثروة الأجيال.

المندوب: يحز في نفسي شخصياً ويحز في نفوس أعضاء الوفد المرافق لي معرفة مدى الأضرار والجرائم التي ارتكبناها ضدكم، ونتعهد لكم من اليوم بالامتناع عن ذبح الخراف وأكلها كباباً مشوياً، فهذه ضد التعاليم، اذا شئتم أيضاً فإننا سنمتنع عن

أكل البيض الطازج خوفاً من جرح مشاعركم النبيلة. فكما تعرفون فإن هذه الأنواع من البيض تحتوي على أجيال المستقبل، ومن الظلم الفاحش فقس الأرواح البريئة. أضع نفسي تحت خدمتكم ورهن إشارة من إصبعكم، أنتم تأمرون ونحن ننفذ، واذا كان لا حرج لديكم فعاملونا اذا أحببتم وكأننا حيوانات. الحق يقال إن هذه هي التعليمات التي وردتني قبل دخولي قاعة الاجتماع، وليس على الحيوان إلا الخضوع والطاعة.

الوعل: نحن بلا شك نقدر طاعتكم العمياء وموقفكم النبيل من قضايانا العادلة، ولكن كما يقال لكل شيء حدود وصبرنا قد نفد وأنتم تماديتم كثيراً في أداء الولاء والنفاق، وهذه ليست من طبائعنا. نطالبكم بالعمل الجدي وطرح مقترحات حول الحد من سفك الدماء التي أثارت مشاعرنا ولم تهز مشاعر مسؤوليكم، حتى نتمكن من التعايش السلمي في مجتمعنا الواحد. وإلا اعتبروا كلامي هذا تهديداً مباشراً بشن هجمات انتحارية على زعامتكم حتى نتمكن من إجبارهم على الحضور الى طاولة المفاوضات. لا يفيد معكم إلا استعمال القوة، صراحة تعبنا من تلاعبكم بأرواح مواطنينا ويئسنا من الروتين المتبع عندكم. لو كان اجتماعنا شاملاً لتطرقت لعدة قضايا اجتماعية أساسية تهم الطرفين، ولكنْ وقتنا ثمين ولا يسمح إلا بالتركيز على النقاط المهمة.

المندوب: كل ما قلته يا سيدي صحيح وأمر ملموس ولا يوجد لدي ما أضيفه سوى إعجابي الشديد بقوة شخصيتكم ورزانة حديثكم، إنها فرصة سعيدة أن أجتمع معكم وكلي أمل بأن تتفهموا

موقفنا الواضح من هذه المسائل. لم أتسلم تعليمات جديدة اضافية تتعلق بالخطوات القادمة، وحسب العادة والعرف المتبع يجب أن ألزم الصمت حول كل المسائل والقضايا المطروحة للنقاش.

الوعل: هذا يعني أنك لن تتقدم بمقترحات من شأنها معالجة الوضع المتدهور.

المندوب: كم أتمنى يا سيدي ولكن ليس بوسعي.

الوعل: من منطلق أنك لا تستطيع التقدم بالاقتراحات المطلوبة، فلا أعرف ما فائدة جلوسك معنا وترؤسك لوفد بلادك. أليس هناك من بني قومك من هو أشد منك كفاءة وذكاء؟

المندوب: لا أعرف، يمكن يا سيدي، ولكن الروتين المعمول به عندنا لا يسمح إلا بترؤسي أنا للوفد. فأرجو عفوك ومعذرتك اذا تطفلت عليك بغباوتي.

الوعل: أرجو من الحاضرين الاستماع جيداً لما سأقول، بعد فشل مندوب الطرف الثاني في التقدم بالاقتراحات المطلوبة، مع العلم أن هدفنا جميعاً في هذه الجلسة هو البحث عن مخرج للورطة التي أوقعتمونا فيها. ولفشل الطرف الثاني فشلاً ذريعاً في تحمل مسؤولياته، فقد قررنا التقدم بمبادرة سلام، مع العلم أن المبادرات في الماضي كانت مقتصرة على منطقة الشرق الاوسط. المبادرة اليوم أصبحت لنا أيها السادة، ونحن نبادر بالاقتراح الذي ينص على تسييج الطرق الخارجية أولاً وفتح بعض المنافذ الضرورية لمرور الطرف الثاني شريطة أن تكون

على شكل أبواب مغلقة. معنى هذا أننا قد تمكنّا على الأقل من عزل الطرف الثاني ضمن حدود دولية معترف بها، ولا ندخل عليهم إلا متى ما شئنا ولا نضايقهم في حياتهم اليومية إلا إذا اعتدوا علينا أولاً. وهكذا قد ننجح في وضعهم ضمن أسيجة مشوكة ونتفرج عليهم. بهذه المبادرة أيضاً تعاملنا معهم بالمثل، فكما هم يتفرجون على أخواتنا وإخواننا في حدائق الحيوانات فنحن اليوم نتفرج عليهم وعلى وضعهم الحالي. هل لدى بعضكم ما يريد أن يقول أو فكرة ما تراوده أو أي شيء في خاطره، أبداً لا أحد، ولا حتى أنت أيها المندوب؟

وقبل أن يرفع الجلسة الختامية دخلت عليه البقرة وهي تبكي وسلمته برقية مستعجلة قرأها بصوت مرتفع على الحاضرين: لقد تمكنت قواتنا البرية ليلة أمس من قتل ٣ جنود للعدو وجرح عددٍ آخر من أفراده وتدمير ناقلة ركاب بالقرب من مصنع الاسمنت. هذا وقد عادت جميع قواتنا الى قواعدها سالمة، وقد فقدنا في هذه العملية قتيلاً واحداً، وإننا نتعهد بتكرار العملية حتى نتمكن من عزلهم عنا ونعيش نحن في حدود آمنة.

****

حنكليس والأخبار

جلس «حنكليس» يتلوى أمام شاشة التلفزيون مع بعض أصدقائه المخلصين في مقهى سلطان ابراهيم، يصغون جميعاً لنشرة الأخبار.

أعزائي المشاهدين، قالها المذيع وهو يبتسم، ثم تابع: في وقت متأخر من ليلة أمس صدر قرار بوقف إطلاق النار وكافة العمليات الحربية بين القوات المتحابة، عفواً المتحاربة، والتقيد بهذا القرار الثالث عشر بعد الألف يشمل مختلف المناطق الساخنة الممتدة على طول الجبهات الداخلية. أما الجبهة الخارجية، فصراحة قد نسيناها ولكن على كل هي تدعو للراحة والاطمئنان، والتحركات العسكرية فيها أخوية ولا تدعو للشك. هذا ما أوردته وكالات الأنباء.

وبناء على ما ورد في نصوص الاتفاق الذي تم التصديق عليه بالأحرف الأولى، فإن الطرفين ملتزمان أخلاقياً بالجلوس حول طاولة المفاوضات دون شروط وعراقيل مسبقة تحت إشراف لجنة دولية. هذا وقد أفادتنا الأنباء الواردة بأن الطرفين قطعا على نفسيهما عهداً ببذل المستحيل من أجل ترميل النساء وقتل الأبرياء وتشريد الأطفال، كما ان الطرفين اللذين أصبحا الآن أطرافاً متعددة ما زالا في طريقهما لمقر الاجتماع الذي تم الاتفاق على عقده في كافتيريا السمكة الذهبية حتى إذاعة هذا البيان.

من جهة أخرى أوردت وكالة «قرموط برس» نبأ عن وصول الطرف الأول بصحبة شقراء جميلة الملامح، عذبة المبسم، فاتنة الجمال، إلا أن هويتها لم تعرف بعد. وما زلنا في انتظار وصول التفاصيل حول هويتها، وسنوافيكم بالمزيد بعد لحظات.

واعتدل «حنكليس» في جلسته وبعد أن تلمس جيوبه طلب من صديقه الجالس عن يساره سيجارة، ثم التفت الى الخلف يبحث عن كبريت.

أعزائي المشاهدين، قالها المذيع وهو ما زال يبتسم، ثم اكمل: جاءنا ما يلي عبر القمر الصناعي... ما ان سمع حنكليس هذه الجملة حتى قفز من كرسيه غاضباً محتجاً والزعل يبدو على وجهه يسأل: وأين ذهب القمر الحقيقي الذي نعرفه؟ فأجابه صديقه «حلزون» يمكن الأميركان سرقوه.

بعد هذه المقاطعة القصيرة عادوا جميعاً للاستماع مرة ثانية.

.... تم عقد الاجتماع التاريخي باتهامات جارحة تبادلها الطرفان في الساعات الاولى من صباح هذا اليوم، وكأنهما يقولان لبعضهما صباح الخير.

في اليابان وقع حادث مروري بين قطار ركاب وشاحنة محملة بالبضائع كانت تسير على طريق جبلي متعرج لحظة وقوع الحادث. ما إن تسلم البلاغ حتى أسرع الى مكان الحادث المفتش «وح وح»، ولم تعرف الأسباب إلا أن التخمينات الاولية أفادت عن شهود عيان بأن القطار خرج عن طريقه بسبب ارتفاع الثلوج وغزارة الامطار لليوم الخامس على التوالي.

في سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا، تم تنفيذ حكم الاعدام بالمجرم الاميركي وليامز هارت بمادة الانسولين بعد ظهر أمس، وذلك بعد إدانته بقتل مجموعة من الرجال والنساء، وقد صرح قبل وفاته بقليل بأنه مشتاق لزوجته ولا يريد أن يموت.

أعلن متحدث رسمي باسم الاسطول المرابط على طول السواحل أن حماية البيئة تقع على عاتق المستضعفين من أهل البلاد والمفلسين، وأن التلوث بمختلف أنواعه أصبح واقعاً ملموساً في المنطقة، ولا خوف من ذلك لأن الأهالي غير مبالين، ومن لا يرغب بقبول الواقع فنحن على استعداد تام لمنحه مزايا العقد الخارجي وتذكرة سفر على حساب الدولة.

أشعل «حنكليس» سيجارة أخرى وهو يتطلع الى العلبة الفارغة التي ألقاها صديقه تحت الطاولة. بدأ يشك في طاقات استيعابه الفكرية، لأنه شعر بوجود نفسه خارج نطاق نشرة الاخبار، وأن هذه النشرة ليست له ولكنها تقرأ عليه. أسئلة تتراكض في ذهنه دون أجوبة مقنعة، لأن الذي سمعه لا يربطه أبداً بمجتمعه الضيق.

يسأل نفسه عن الحادث الأليم الذي وقع في اليابان منذ أسبوع وعن مدى الأضرار المادية التي لحقت بشركة القطارات ويقارنه بالحادث الذي وقع على الشارع العام الرملي الذي لم يمهد بعد ليكون شاهداً على الإهمال والتقاعس، والطفلة التي ماتت مع أخيها تحت عجلات سيارة في «سكة» مظلمة. يحاول إقناع نفسه بأن وليامز هارت لا يستحق الحياة لأنه قاتل، ولكنه لم

يعرف شيئاً عن المجرم الذي اغتصب تلك الطفلة التي لم تبلغ العاشرة من العمر، ولم يعرف شيئاً عن المجرم الذي قتل الكثيرات غيرها. سرح بأفكاره بعيداً وانتقل الى عالم الأحلام، ثم عاد فجأة الى تعاسة الحياة عندما احترق اصبعه من السيجارة التي اقتربت من الموت والفناء. فسمع المذيع وهو ما زال يبتسم، بلغت درجة الحرارة بحديها الأعلى والأدنى... والطقس غائم في الساعات الاولى وشديد الامطار مع سقوط بعض الثلوج عند الظهيرة.

«حنكليس» تأكد أنه ليس كل ما يذاع صحيحاً ويرتبط بمجتمعه وبمتطلبات شعبه، وأنه لم ير قط في عمره. الثلوج تهطل على البلاد في شهر أغسطس من كل عام.

صرخ بصوت عالٍ يطلب من مباشر المقهى الولد «صبيدح» إغلاق جهاز التلفزيون، لأنه لم يعد يستوعب مزيداً من المهاترات بـ حول الناس، بينما المذيع ما زال يبتسم وهو يقول: والآن أعزائي المشاهدين نضحك عليكم باستعراض فقرات من برنامج غصباً عنك.

****

الذبابة

بعد أن انتهت «ذبابة» من تناول وجبة غداء يوم الجمعة غسلت يدها وتمددت على ظهرها تتصفح مجلة الاسبوع وتصغي الى أغنية شعبية. كل شيء يسير على ما يرام، حتى إنها تشعر أحياناً برعشة الطرب تسري في عروقها. توقف المذياع عن بث برامجه السنوية المعتادة ليعلن بعد لحظة صمت مرعبة ظنت خلالها أن شخصية مهمة قد توفيت، أن الفارس المغوار قد أعلن من حمّام منزله بأنه لا وقت لديه لمعالجة قضايا أمته المستعصية، وأنه سيتوقف عن توقيع معاملات الناس، وذلك لإتاحة الفرصة لمعاينة التعديلات والتحسينات الجديدة التي أدخلت على الحمام والتمتع بروائع فن الرخام الحديث.

غضبت ذبابة غضباً شديداً وفقدت أعصابها وانتابتها نوبة من الهستيريا واحمر وجهها وبانت عروق رقبتها من استفزاز مشاعر المواطنين، خاصة ان المواطن لم يعد مغفلاً إنما يعرف جيداً حقيقة الواقع دون ضرورة لتكرار الاعلان عنه. فبحثت عن قلمها المنسي ووجدته في صندوق الاحذية مغطى بالغبار الذي تراكم عليه من جراء عدم استعماله اليومي. وبدأت في كتابة رسالة واقعية ستبعثها بالبريد الممتاز تطلب فيها من الفارس المغوار أن يسلك معها سلوكاً حضارياً.

عزيزي الفارس المغوار،

تحية طيبة واحتراماً،

أما بعد...

عندي لك رسالة فيها تعابير حبي، من قلبي أبعثها شوقاً يخالج أضلعي. رسالتي فيها معانٍ أجمل من كل أنواع الورود، ولكنك كالعادة لا تستوعب محتواها.. فيها أحلامي وغدي، فيها أفراحي وأحزاني وبؤسي. يا فارسي رأفة بقلب ظلمته تعاسة الزمان والظروف التي خلفتها، ويا شوق رأفة بدنيا أهلكها الفساد.

لولا الصباح المشرق بين هضاب الصحراء وعلى السهول والوديان، ولولا تغريد طيور مزغردة على نغمات قلوب حزينة أتلفتها طبول راقصة، لدام الحزن وساد الظلام واختفت ابتسامة أطفال أبرياء.

أية انسانية لا تؤخذ بالاعتبار؟ الانسان لم يعد إلا رقماً مكملاً لتعداد السكان. الانسان في مجمله فقد ذاته بفقدانه كرامته، والكرامة أصبحت فلسفة يتم تشريحها حسب رغبات من في القصة.

فلسفتي أن أشاركك أفراحك وتشاركني أحزاني، أن اشاركك أحزانك وتشاركني أفراحي، لكنك تماديت في تسيبك حتى ضاعت مني حقوقي. يشتعل الغضب فأخمده بأمل زائف يراودني لعله ينير دجى مستقبلي. تنتابني الشكوك فأزيلها بابتسامة فيها جروحي، وآلامي ترتسم على وجه أكلته مصائب الزمان.

سيدي، أخجل من رؤيتك تختال عزاً وافتخاراً بينما من هم حولك يتساقطون على الارض. عجباً من تأملك لحمام جميل مزخرف بالرخام، وتجاهلك لقضايا أمة يؤرقها مستقبل أطفالها وتنعى عجائزها وتبكي شبابا انتحروا على أمواج الاضطهاد.

اشتقت الى الحق فبحثت عنه مع الاثير بين آهات الليل وهمسات الفجر وبين جذور الاشجار، فوجدته مثلي باكياً مشتاقاً مسجوناً خلف قضبان النهب والظلم والجبروت والاستهتار، فصرخت مستغيثة، فأجابني طفل لم تلده أمه صوته يتردد بين قمم الجبال «اشتقت الى الأرض التي لم تعد لي، ليس لي إلا ترابها الذي سأدفن فيه وذلك فخري واعتزازي». لم أعد اصبر على ما حل بي من عسف واحتقار، ولم تعد تملك قلبي الذي كان يهواك في الماضي، فأصبحت أنت عذابي وشقائي بعد ما كنت راحتي وهنائي، ولكن تأكد ما زلت أؤمن بأن بعد طول الليل يأتي نور الصباح.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أكرر لوعتي وغضبي واستنكاري من تصريح أشعل نار غليلي وجعلني دائمة التفكير بك، ولا أرى أمام ناظري إلا سواك، لقد أهنتني وشعرت بعمق الاهانة، ولكن لا سبيل لي لنقل احتجاجي لمقر تأملك الدائم، فقد أغلقت في وجهي جميع الأبواب. لا عزاء لي بعد اليوم إلا أن أطلب منك أن تسلك معي سلوكاً حضارياً.

هذا، ولكم مني فائق الشكر والاحترام، وبلغ سلامي لجميع من نال رضاك والى اللقاء.

(التوقيع)
المخلصة لكم
ذبابة

****

الشك واليقين

ضدان لا يتلازمان أو يتوافقان، يكرهان بعضهما وفي حياتهما متنافران. لقد تنصل اليقين من أوهام الشك المرعب وانتهج حياة التحرر والكفاح. وأراد الشك الحد من اندفاعات اليقين والقضاء على طموحات الاستقلال وإبقاء بيت الهزيمة والذل مفتوحاً وعامراً بطبول الأفراح الهزيلة. اختار اليقين النضال بعدما فشلت محاولات الوئام وصمم على محاربة الشك الذي أثخنه بجراح الخوف المسافر على أجنحة الظلام المتقمص ابتسامات الصباح.

قال اليقين: أنا الشعب صاحب الحق سأناضل من أجل الكرامة وسأزيح عنها ستار العبودية، لأن ستائر هذه الأيام لا تزاح إلا في يوم الافتتاح.

قال الشك: وأنا السلطة الاستعمارية لن أخضع، وإن سألتني على من هذا السمو والتعالي فسأقول عليك أنت يا شعب، وسأحارب كل من تنكر لفضائل أسياده وطالب بحرية الانسان ونبذ القهر من وادي الحرمان. سأفرش بساطي بألوانه المتنوعة لتغطية حقائق شعوب أصبحت عاجزة تسبح في هواجس الظنون وبعد العز تتوسل الآن رغيف الخبز من إحسان الدولار.

من يومها، والاثنان يسلكان طريقين مختلفين، فاتخذ اليقين من طريق التحرر درباً شاقاً نحو المساواة والكرامة الوطنية المفقودة والاستقلال المتكامل. أما الشك فقد اختار الطريق نحو

الغرب درباً ممهداً للاحتماء من غضب أطفال اليقين، الذين يمعنون النظر حقداً على مهازل تسببت في ضياع الوجود وسببت انهيار أركان الحلم في القدرة على وحدة الشعوب. يتلوى الشك بأعذاره المحفوظة في قوالب اليأس والقنوط ليصبها في قنوات بالزمرد مفروشة ليقول ماعاد العربي قادراً فالهزيمة هي النتيجة.

يختنق اليقين ولا يستطيع أن ينطق، فالكلمة في الحناجر مسجونة، إنه اليأس حين يتسرب الى النفوس. فيثأر مستشهداً بكوكب آخر خرَّ صريعاً. دماء الشهداء لن تنضب وعلى لوائح الفداء بالتسلسل أضيفت أسماء جديدة. شعوب تنجب وتهدي فلذات الأكباد في صفوف طويلة قرابين وضحايا وشهداء، شعوب كهذه لن تفنى من على وجه البسيطة، ولا يمكن أن تستسلم، إنها شعوب ستتحرر وستحرر وستنتصر. طاقات الشعوب المقهورة التي في نفوسها مكبوتة ستنفجر اضطهاداً لتسحب بساط الذل والشك من تحت أرجل النفاق، لتعري «زعماء» خلعوا ورقة التوت من دون حياء، ولم يبالوا بلعنات الصباح التي على تيجانهم تنصب. اليقين هو بالمثابرة والنضال، فسيزول الشك ويتسرب النور من خفايا الظلام، وسيشرب الرضيع حليباً ممزوجاً بالعزة والكبرياء والشموخ الوطني. إنكم تنعمون بأموال شعب يئن من ظلم ضرائب الجباة، إنكم أنتم الشك المتلازم مع الحياة، فحين نراك يا شك تحوم حول أعناقنا، إنها علامة العجز السلطوي يبحث عن مخرج من ورطة الفشل تجاه عذر يغدر به تجمع الفقراء وآلاف الأبرياء، إنها السلطة الاستعمارية في أحلك الظروف. فيا شك قد تجنست بحكم القانون الذي صنعته، إنه الفقير من دون هوية في

متاهات خطابات جوفاء ووعود فارغة... إنك تسافر مع هبوب الرياح الى أنحاء وبقاع العالم المتفرعة، لتنزل على أهلها أعاصير وكوارث وتتجنس بجنسيتها وتقتبس عاداتها، إنك الشر الذي ينتزع الابن من أمه.

****

«أمـــل»

في صباح يوم من أيام نيسان الماضي استيقظ أهل القرية من نومهم قبل زغردة العصافير وانجلاء ظلمة الليل، وتجمعوا على شاطىء ناء من شواطىء الخليج الدافئة يبحثون عن «أمل» ويستفسرون من بعضهم عن صحته ومدى سعادته وقوته في أيام التقشف هذه، لأنهم جميعاً رأوا في منامهم أن «أمل» قد مات. حزنوا حزناً شديداً لأنه لولا هذا الأمل الصغير وهو كل ما يملكون والمجهود الجبار الذي بذله دائماً من أجلهم ومن أجل إسعادهم في أحزانهم لمات أهل القرية كلهم. ها هم الآن يريدون أن يردوا المعروف لأمل قبل فوات الأوان لما قدمه من حسنات جمة لكل البشرية، وإنهم لا يريدون أن يفقدوا أخاً وفياً مخلصاً غالياً بفقدانه قد يفقدون الحياة بعد أن يتمكن اليأس من التغلغل الى أعماق نفوسهم، فقرروا تشكيل مجموعات عمل للبحث عن «أمل» وإعادته الى نفوس أهل القرية المشتاقة اليه.

بدأوا البحث والاستفسار من الأطفال والتوسل اليهم بأن يخبروهم متى رأوا «أمل» لأن أمره أصبح مهماً جداً ولا يمكن التغاضي عنه، «يا حبذا يا طفلي لو تخبرني بمكان أمل» قالها شيخ في السبعين من عمره.. وأخيراً تمكنوا من رؤية «أمل» مختبئاً في نفس رضيع لم يتعلم النطق بعد. رقص أهل القرية وسالت دموعهم وهللوا احتفالاً برؤيته وطلبوا منه العودة الى القرية ليكتمل الفرح، ولكنه رفض. رفضه جاء من منطلقات عديدة

ولأسباب كثيرة، فما عاد يتقبل الاهانات المتكررة بهذا الشكل الفادح، ولم يعد يرضى بذل الانسانية السائد وبالوعود الكاذبة التي جعلت منه مهزلة واقعية ووسيلة للتحايل على عقول البشر.

يقول «أمل»: إنه كره حياة الكذب والنفاق، وخوفه من أن يتسلل اليأس الى قلبه هو الذي جعله يفضل حياة العزلة في عالم رضيع يتطلع بشغف وإعجاب نحو حياة كريمة أسسها العدالة والمساواة. توسل أهل القرية مرة أخرى ولكن توسلهم أيضاً باء بالفشل، فكرامة «أمل» تأبى العودة الى نفوس تذللت يأساً من كثرة الوعود الفارغة. إن «أمل» عندما كان في نفوس أهل القرية لم يتحركوا وكأن الأمر لا يعنيهم، إنما يعزون أنفسهم بأحلام تتبخر كل مطلع يوم جديد لم يشرق بعد، لأن يوم غد تكرار وصورة طبق الأصل عن نهار أمس الذي انقضى بيأسه، لم يعرفوا فيه حلاوة الابتسامة ومعنى السعادة.

سألهم «أمل» اذا كانوا سيقبلون بعودته الى عالمهم بشروطه الجديدة المنبثقة من قوة الايمان بقدرة الانسان على التجديد، فأجابوه جميعاً وبصوت واحد منخفض «لا» وهم يهزون رؤوسهم علامة النفي. سألهم عما اذا كان من الأفضل أن يختبىء في نفوس بريئة تعشق الحق وفي أيديها مفاتيح حياة جديدة تفوح منها روائح الأمل الذي يبحثون عنه، فأجابوه جميعاً وبصوت واحد منخفض «نعم» وهم يومئون برؤوسهم علامة الموافقة.

****

الحرية

عندما علم الاستاذ «سرطعون» عن الحادث المؤسف الذي أودى بحياة حبيبته «كلمة» اعتبر الأمر مجرد نكتة من الوهلة الأولى، فلم يتمالك نفسه من الضحك، الا أنه مؤخراً وبعد شدة وقوة وتعسف القوانين المعمول بها افتقد صحبة واحاديث وجلسات «كلمة» التي اعتاد عليها منذ نعومة أظفاره. ذهب يبحث عنها فأخبروه أن المرحومة فارقت دنيانا وانتقلت الى عالم الحضارة، فانهار على ركبتيه باكياً.

جلس السرطعون ووجهه بين كفيه تتسابق ذكريات الماضي في مخيلته وهو يتذكر صحبة عمرٍ لم تكتمل. ماتت حبيبته الوفية التي أحبها أكثر من حياته وهي في ريعان شبابها. لو ماتت بسبب مرض لقال هذه قوة فوق الطبيعة، ولو ماتت في حادث لقال هذا قضاء وقدر، ولكن أن تموت مقتولة طعناً في الظهر فهذا خزي وعار لأحرار العالم ولكل المدافعين عن الحقوق الانسانية، فما فائدة حياة الانسان من دون حب، فالحب للانسان كالملح للأكل.

كانت جميلة الشكل موسيقية، حلوة النطق، سلسبيلة الحرف، عذبة الإعراب، سهلة الصرف. حبيبتي من مواليد ديسمبر ٧١، نشأت وترعرعت في بيئة غير صحية وتحت ظروف معيشية قاسية حالها حال الاغلبية من إخوانها وأخواتها اللواتي يقضين ليالي الحزن ساهرات. منيتي يا آنسي في وحدتي وراحتي في شقائي، أصبحت اليوم عذابي وجحيمي وهمومي في عزائي. يا

سلوة الخاطر أبكيكِ بقلب لم يعرف الراحة بعد مماتكِ وبناظر لم تجف مدامعه في يقظتي. ذكراك طيف يعاتبني، وفي نومي لا أرى الا خيالك يؤنسني. لا عزاء لي بعد اليوم إلا أن أقول ما هنئت عين قاتلك ولا جفت من على أرض العروبة دماك. فكما قال نزار قباني «بلقيس.. تذبحني التفاصيل الصغيرة في علاقتنا، وتجلدني الدقائق والثواني». بينما كنا أنا وأنت والعشاق من حولنا نتطلع بشوق الى بدر العدالة في كبد سماء مظلمة امتدت إليكِ يد الغدر والإثم والعدوان وتناولتك دون سائر أزمات اجتماعية، اختارتكِ لتكوني كبش فداء لمصائب من صنع أيديهم. إن عرفوكِ في حياتك القصيرة باسم «كلمة» وتاجروا بمعانيك وتفلسفوا بقدراتك التعبيرية، فإني سأدعوك وسأكتب على قبرك اسم «حرية» عاشت يتيمة وماتت يتيمة بثوب الفقر الممزق دون أن تترك وصية.

«حرية» أنت حريتي من الأوهام وخوفي من غدي وتعاستي من أمسي، حرية لا تلومي عبداً محروماً من حقوقه اشتاق للمسة من يدكِ الحنونة، وهمسة من شفتاكِ الناعمة، وقبلة من ثغرك العذب. آه يا حرية حين رأيت وجهك بين الورود وفي الدول الديمقراطية ظننت أن الورود قد اكتست من جمال ذلك الوجه. عشقتكِ والنار في فؤادي تحرق أضلعي، عشقتكِ يا حرية والفجر ينتسل خيوطا من عمق الدجى، لو كنتِ بجانبي لبكيتِ من بكائي، فأنا أعرفك جيداً إنكِ ستقولين حبيبي ما فائدة البكاء على جسد توارى في التراب. يا بدر تحت التراب روحي بك تعلقت، آه يا نجمة السماء اشهدي أن في ذلك القبر لي مهجة نائمة هي مهجتي، فحماكِ الله إحميها.

وظل السرطعون على هذه الحال كئيباً من يأسٍ تغلغل في أحشائه من دون قانون ينتشله من مصيبته أو مرسوم يسلي خاطره ويواسي أحزانه في مصابه الفادح. فكلما يمر بجانب قبر حرية ينهار باكياً وينتحب على تراب هو كل ما تبقى له من ذكرى غالية لخليل غالٍ. لم يعد يفقه طبائعهم فحبيبته قد رحلت من دنيا النفاق والولائم وتقبيل الرؤوس، ولم يعد يطيق أخبارهم لأنها مزيفة في عالم زائف. يتمسك ببصيص الأمل المتوالد في نفوس مشتاقة الى «حرية» متفجرة غضباً لم تخدعها قشور الحضارة وحضارة النفط. نراه دائماً يستمع الى موسيقى حزينة بأعصاب هادئة وحواس مرهفة في ظلمة الليل الموحشة. يسهر وحيداً وينام وحيداً على كتاب عنوانه «موت أميرة»، يتفرج على أفراحهم من خلال التلفزيون وتبادل التهاني.

ماتت أميرته الصغيرة، ماتت أحلامه الكبيرة، ولكن السرطعون لن ييأس أبداً كما قال فهو يؤمن بأن حبيبته حرية ستبعث الى الدنيا من جديد في يوم ما.

****

«اللقلق»

زادت الاحاديث والأقاويل والوشوشات مؤخراً عن طائر اللقلق، فمنهم من يقول إنه يستحق أكثر مما حل به وأصابه بكثير والا لماذا لم يلتزم بقاعدة الصمت المعروفة حاله حال الاغلبية الصامتة. البعض الآخر يقول ان الروح الخلوقة لا بد ان تنطق مهما طال ظلام الصمت، وان تنطق بالحق وليس غير الحق بديلا وتعبر عن مشاعرها تعبيراً صادقاً نابعاً من الأعماق الغزيرة. لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً بضمائر حية ومعنويات عالية عندما كنا نرفس المهد بأرجلنا الصغيرة ونطلق صرخات الاستغاثة. فكيف بنا ونحن اليوم آباء لرجال المستقبل لا نستغيث حين نشعر بالظلم الطاغي والعدوان الصارخ على كرامتنا الانسانية وانسانيتنا المتخلفة؟

لوضع الامور في نصابها الصحيحة علينا معرفة القصة من بدايتها حتى نتمكن من معرفة الحقائق المجهولة التي غابت عن أذهان الجماهير المقموعة وبالتالي نستطيع اطلاق حكمنا اذا كان اللقلق مذنبا وأدخل السجن ظلما وبهتانا، أم انه كان يستحق كل هذه الضجة و«البهدلة» النفسية التي أضرت بصحته وحطمت معنوياته العالية التي كان يتحلى بها في الماضي.

عندما كان اللقلق في اجازته السنوية التي قضاها في بريطانيا وفرنسا، شاهد في لندن بأحد البارات عصر يوم الاحد شخصيتين كبيرتين من قريته احداهما تقدم الأخرى لفتاة شقراء

ناعمة الوجه، باسمة الثغر عالية الردف:

- أعرفك على أعز أصدقائي المستر ابراهيم.

- فقالت الشقراء وهي تستصعب الاسم العربي، هلو مستر «بهيم»، كيف حالك؟

- فقال ابراهيم وهو ينظر الى وجه صديقه مستفسرا دون استغراب، يعني ان اسمي بهيم بالانجليزي؟

ضحك اللقلق بصوت عالٍ من هذا الحدث الساخر، مما لفت انتباه السيد ابراهيم فعرفه رأساً.

خرج اللقلق مسرعاً وتوجه الى «الهايد بارك كورنر» لسماع كل ما يقال من أحاديث وخطابات وصرخات وانتقادات، فتحمس بدوره وصعد على المنبر وألقى خطاباً سياسياً ساخناً وسط عاصفة من الاعجاب والتصفيق، والمقاطعة، هاجم فيه السياسة البريطانية في الشرق الاوسط، كما عاد بالاذهان الى عصر الاضطهاد البريطاني لشعوب آسيا وافريقيا وزج أحرار العالم في السجون كعبيد لحكومة صاحبة الجلالة.

بعد أن قضى من عمره عدة أيام مشهودات في مدينة الضباب ذاق نوعاً من حرية الديمقراطية انتهى به الأمر في باريس حسب جدول الرحلة المعد مسبقاً.

أخذ تارة يمشي وأخرى يجري لمشاهدة برج ايفل وقوس النصر ومركز بومبيدو والشانزليزيه والاوبرا، حتى وصل الى ساحة الكونكورد. لم يتمالك نفسه وانهارت أعصابه، فوقف باتجاه قوس النصر وأخذ ينشد أبياتا من قصيدة أحمد شوقي:

اذا ما جاءه طلاب حــــق يقول: عصابة خرجوا وشقوا،

دم الثوار تعرفه فرنســـا وتعلم انه نـــور وحـــق،

وللأوطان في دم كل حــر يد سلفت ودين مستـــحق،

وللحرية الحمراء بـــاب بكل يد مضــرجة يـــدق،

لم يهدأ خاطره، ويسكت إلا بعد أن انحدرت دمعة حزن ساخنة حرقت صحن خده الايمن، ذكرته بتاريخ فرنسا في العالم العربي، كان عبارة عن خلاصة تاريخية مليئة بمآسي مخيمات اللاجئين والمشردين وملخص كرامة اندثرت على عتبة أبواب السلطة. ذكرى متشرد في وطنه ومواطن في بلاد الغربة ينعى أمسه ويبكي يومه، غابت عنه صفة المواطنية فبقيت اطلالها في جواز سفره ذكرى مشتاقة لمشتاق.

مرت الأيام وانقضى شهر الاجازة، فحزم حقيبته ولسان حاله يقول باصرار أنا لست مسافرا ووطني ليس حقيبة. ما ان لامست قدماه أرض الوطن حتى تمت محاصرة المطار من كل النواحي وإلقاء القبض على اللقلق، فحاول المقاومة ولكنه باء بالفشل. استفسر عن سبب إلقاء القبض عليه فأخبروه بأنه خالف قانون المطبوعات والنشر وذلك بتهجمه على دول صديقة وحميمة كبريطانيا وفرنسا تربطهما علاقات أخوية من نوع آخر مع شخصياتنا الجليلة. أسلم أمره وامتنع عن المقاومة، فكيف سيقاوم بمفرده رغم أن منظمة بأكملها فشلت في أن تقاوم؟ حقا، إنه تعجب من نوعية الاتهام واستغرب من عجائب الاطوار، فالدول

التي قيل إنه تهجم عليها لم تهتم به ولم تلق عليه القبض عندما كان متنقلاً في اراضيها بحرية تامة دون عوائق وحواجز تفتيشية، ولم ير حتى سيارة رادار واقفة على جوانب الطرق الفرعية الخالية من المارة. كل ما قاله في حق الدول الغربية التي انتهكت الحقوق العربية والتي لم يتمكن أصحابها من المحافظة عليها، والتي ما زالت تنتهج سياسة عدوانية بحق الشعوب المستضعفة لا يتعدى مجرد الاعلان عن رأيه وعن حقيقة أصبحت معروفة لدى المحرومين؛ مع العلم أن حرية الرأي مضمونة في دساتير قديمة مؤقتة. لا يعرف لماذا وكيف، ولكن ذكرى الشخصيتين اللتين رآهما في البار في لندن طرأت على باله، فانساب خياله واسعاً بين القصور والخيول والمطارات وطائرات الجت الخاصة. لماذا تذكر كل هذه الأحداث، وفي هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ حياته المقموعة سيظل لغزاً محيراً لرجال الأمن والمخابرات والجواسيس والجيش وقوات الشرطة التي هرعت الى مكان إلقاء القبض على طائر اللقلق العائد من اجازته السنوية.

****

العندليب

نصّب العندليب نفسه متحدثاً رسمياً وناطقاً باللغة العربية وبتفكير اميركي ومخولاً باسم مختلف قطاعات الفقراء المحروقين هماً والمشردين في الدول الشقيقة.

أول عمل قام به هو دعوة الهيئة التنفيذية للاجتماع المغلق والتصويت العلني لاختياره رئيساً من دون منافس والتصديق على التطورات المستقبلية المتعلقة بالقضية، والتي من خلالها سيتم انجاز المستحيل وتطبيق شرائع اللامعقول. كما قال المتحدث نفسه إن من اللامعقول رؤية فقير بيننا، نحن معشر الحكام، ولكن من المعقول جداً رؤية شعوبنا تسلب حريتها وتحرم من حقوقها.

وقف أمام الميكروفون وهو يردد أمام حشود من العجائز وكبار السن قائلاً: أبنائي الأعزاء، إننا سنناضل وسنكافح، وإننا سنحرر كل شبر من أرضنا الغالية، وإننا وإننا. فأجابته امرأة عجوز، وإننا من الكرامة محرومون، فتغاضى عما سمع خوفاً من سرقة الأضواء عنه ولكي لا يصبح له عندئذ منافس على مكبرات الصوت.

ان الهيئة التنفيذية قررت استنفار القوات الثورية وتجنيد المتطوعين وفتح أبواب النضال، وان الهيئة التنفيذية التي هي أنا، تناشد جميع الاخوة والاشقاء الانضباط وإلقاء السلاح حتى اشعار آخر. ولا تسألوني متى سيكون ذلك، لأني أنا شخصيا ما

زلت انتظره من الجهات المعنية.

يا أبنائي وبناتي العزيزات.... والعجائز ما زلن في انتظار ما سيقول. فقال واصبعه يلوح في الهواء: لا خوف على القضية ما دامت على أكتافكم... ويسعدني أن أخبركم بأني سأبتعد عنكم في زيارة عمل واستجمام ومجاملة لأشقائنا في الدول الشقيقة.... وارتفعت الحناجر تطالب بتبليغ السلام، وارتفع صوته هو أيضاً وكله حماس قائلاً: يسرني أن أبوح بهذا السر بعد أن عجزت عن كتمانه وهو أني سأتوجه من هناك للأمم المتحدة. نهضت امرأة كبيرة السن على ركبتين مهزوزتين تستسمحه عذراً عن سؤال تقول فيه: يا ابني هل أنت ستسافر هذه المرة بغصن او من دون غصن؟ تغاضى عن السؤال، فأكمل.... أعزائي المشاهدين، سنقدم لكم برنامج عمل الهيئة التنفيذية وموافقتكم لا بأس بها اذا جاءت بالايجاب، وإلا فأشقاؤنا سيتكفلون بالباقي، كما أريد أن أطمئنكم بأن القضية في أيد أمينة ولا خوف عليها، وما مخاوفكم من المستقبل إلا مجرد هواجس ستزول مع الأيام لأن الرجل قد أعطانا كلمته بعدم التحرش المباشر كما فعل من قبل.

ولعلمكم الخاص إنني قمت بتدوين القضية على ورقة، حفظتها بصندوق حديدي لا يعرف أرقامه السرية سواي أنا، لأننا إذا فقدنا هذه الورقة فقدنا القضية، كما أمرت بتعليق عضوية البندقية من الهيئة التنفيذية احتراماً لمشاعر أشقائنا وللظروف السيئة التي تمر على أمة خالد بن الوليد وطارق بن زياد.

وبعد الخطابات والتجاوزات والاجتماعات والمزايدات مرت

الأيام، واذا بالعندليب يصرخ باكياً يطلب عقد مؤتمر جماهيري عاجل، وعندما حانت الساعة ارتفع صوت العندليب كالعادة، ياجماهيرنا المناضلة لقد فتحت الصندوق فوجدت القضية طارت، فتداركت امري وهرولت مسرعاً نحو البندقية من أجل الدفاع عن الشرف وانتهاك حرمة البيت والوطن ومعاقبة المعتدي، فوجدت طفلاً حزيناً يقول لي «البندقية اختفت؟ والقضية باعوها».

أعلن راديو العدو أن أم هيثم من القطاع تبلغ سلامها لأولادها هيثم وجبريل وأبو نبيل وتقول إنها مشتاقة، وإن القضية صارت قصة تروى للأطفال قبل ساعة النوم، بدايتها كان يا ما كان في قديم الزمان......

****

العنكبوت يتزوج

سقط العنكبوت في حفرة من دون أن يدري، وتكملة للاجراءات المعمول بها في مثل هذه الحالة، ثارت مشاعره ونبض قلبه واهتزت مفاصله. وفتح كتاب الحب ليقرأ فصلاً كاملاً تحت عنوان «أنا الولهان في دنيا الأحزان» من تأليف تقاليد المجتمع القديمة.

عندما التزم بالعادة المعمول بها واكتفى بالغزل والتغني بصاحبة العيون الكحيلة لم يلتفت اليه أحد لمعالجة الاوضاع الاجتماعية السائدة بين أفراد العشيرة، إنما اعتبروا الامر مجرد مزحة ثقيلة ونكتة مريرة في حياة شعب امتنع عن الضحك. الآن وقد تم طرح مشروع الزواج حسب الاجراء اللازم، ارتفعت صرخات الاستنكار والاستغاثة وسالت دموع القبيلة واشمأزت النفوس من قرار العنكبوت بالزواج من فتاة أحبها لم تنل رضى واعجاب الوالدة والوالد والجدة العجوز. اجتمعت اللحنة واعطت توجيهاتها وتصوراتها للمرحلة القادمة وتدارست الوضع الداخلي المتدهور واتخذت الحلول المناسبة على ضوء التطورات الأخيرة غير المتوقعة، وبناء على توجيهات اعلنت اللجنة حالة الطوارىء ورفضها القاطع للمساومة على مسائل تتعلق بخصوصيات الافراد وحياتهم الاجتماعية، وأصرت على موقفها الرافض لكل ما يتعلق باستقلالية الذات وناشدت جميع الفرقاء التعاون الاخوي ومقاطعة العدو المشترك الذي خرج عن خط

التعاليم العائلية.

تداركت اللجنة أمرها حين أعلنت أنه لا يجوز التسرع منذ البداية في اتخاذ الاجراءات التعسفية ضد كل من تسول له نفسه بالرواج الا بعد مقاطعة وضرب صاحب العلاقة ودراسة وافية لكل التفاصيل الصغيرة المعروفة والاتصال بكافة الجهات المعنية.

خلفيات وماضي العروس لا تقلّ أهميتها عن أي مسألة وطنية أخرى، وكل هذا أثير في اجتماع عاصف انصبت فيه جميع الاحتجاجات على ماضي العروس حين عرفوا أنها لا تنتسب الى شريحة اجتماعية غنية، وتم توجيه الاتهام الى العنكبوت بأنه يتآمر مع الآخرين من دون مستواه الطبقي على تخريب انجازات طبقة لا هم لها الا التزاوج في مواسم معينة حفاظاً على مصالح عائلية. أصروا على معرفة ماضي العروس، حاضرها ومستقبلها ومواقفها تجاه بعض العائلات من أصحاب النفوذ ومن أهل الأصل والنسب والثقافات الانتهازية. بالنسبة للجنة فهذه مصيبة، فزلزلت الأرض وتشابكت خطوط الهواتف وانهالت برقيات الاستنكار واتضحت مواقف كانت قبل برهة خفية تطالب بالعدول والتنحي عن قرار الزواج والتقيد بالنظام حسب اللوائح التعليمية. لا بد من اتخاذ اجراءات رادعة لأن هذه الفتاة تجهل النصب والاحتيال وفوائد الريع والاسهم ومردود رأس المال والقيمة، وليس لها من هذه المسائل حيلة. فما هو موقف العشيرة من هذه المسائل الجديدة؟

قامت اللجنة بمحاولات عديدة من أجل إقناع العنكبوت وإجباره إذا تطلّب الأمر للعودة الى صفوف العشيرة التي تخلى عنها بعد معرفته للحياة الحديثة. بكى وقال: صفي الذي أنتسب اليه هو وطني، ومستقبلي لا يكمن في نسبي، إنما إثبات وجودي يتحقق من خلال عملي، وحياتي ليست لأهلي رهينة. غضب أعضاء اللجنة من هذه التصريحات اللامسؤولة والتي لا تخدم إلا أعداء الأمة.

وطالبوا بضرورة فرض عقوبات رادعة تمنع الزواج اذا خلا من الاحتفالات الخرافية الرهيبة مثل تلك التي وردت في قصص ألف ليلة وليلة. لا يسع العنكبوت في مثل هذه الظروف الراهنة إلا أن يتمرد على التقاليد القديمة ويعصي الأوامر الصادرة اليه والتي تنتزع الفرحة من النفوس والابتسامة من الأفواه والسعادة من القلوب الجريحة.

****

«الحدود»

ولد «حدود» من أب غير شرعي، وعاش وترعرع في ظل محبة وعطف من احتضنوه وقاسوا الليالي من أجله، وأخذوا على عاتقهم مسؤولية رعايته والمحافظة على صحته وسلامته. نما «حدود» مدللاً، لعوباً، كثير المشكلات يثير المآسي والضجر في نفوس كل من عاشروه وعرفوا طبائعه، غير أن نظرة عمومته له تزداد حباً واعجاباً شديداً وتقديراً فائقاً للمواهب التي يتحلى بها.

«حدود» بالنسبة للغرباء الذين لم يحتكوا به مجرد أضحوكة هزلية ونكتة للتسلية، وطفل سيىء الأخلاق، فاقد التهذيب وأصول المعاملات الاجتماعية، وفي حاجة لمزيد من العناية والاهتمام لترويضه من أجل الحياة ومتطلبات العصر. أما بالنسبة لمن يعرفه وعاش معه، فهو طفل بلا ضمير، شرس، مرعب، عصبي المزاج، سريع الغضب، ووصمة عار ساطعة، مضيئة في جبين الكرامة الوطنية.

قالوا عنه الكثير وتداولته الألسن، وكتبت عنه الصحف المحلية والعالمية، وجاهدوا كثيرا في تحسين سمعته الخارجية، إلا أن تصرفات «حدود» لم تتبدل بنتائجها ولم تتغير بقباحتها، وظل هو ذلك الولد البغيض نفسه الذي لا صديق له، ولكنه ما زال حبيب أهله ويستمد قوته من حبهم له وينمو بعضلات مفتولة تبهر أعين المعجبين والمعجبات بنوادر العصور الحديثة. يقولون إنه سيكبر وسيعقل وسيسترد ضميره، إلا أن تصرفاته لا تدل

على ذلك، فكل يوم يمر يزداد حيوية ونشاطاً، لأن «حدود» يشرب من آبار النفط ويأكل من قوت فقراء أهل القرية والوادي.

يتمنى الناس رؤيته صريعاً مذبوحاً والدماء تسيل منه كي يتخلصوا من شره ويضعوا نهاية سعيدة لحياته التي جعلت حياتهم تعيسة، وكم ستكون سعادتهم عظيمة عندما يسمعون أنه مريض على فراش الموت ويلفظ أنفاسه الاخيرة. إلا أن «حدود» في صحة جيدة ولا يشكو من ألم ولم يمرض أبداً، وكل ما قيل عن سوء صحته وتردي حالته مجرد إشاعات وأقاويل ودعاية أريد بها النيل من سمعته، ويطلقها بعض الناس الذين يخجلون من تصرفات «حدود» الطائشة واللا وطنية.

لم يقنع «حدود» بكونه مجرد ضرر قد حل على الأرزاق والعباد ومصيبة تهيمن على رؤوس الكادحين في البلاد، ولكنه يؤمن ويصر على التدخل في شؤون الناس الخاصة واثارة الفتن والتفرقة بين الاخوة والاقارب، حتى تمكن واستطاع في مرحلة ليست نهائية بعد، انتزاع الأكل من الأفواه الجائعة.

انه ليس ذلك الفتى الوسيم الذي نراه «يتمخطر» بيننا بجماله ونظافة ثيابه. ولكنه منذ نعومة أظفاره منذ اللحظة التي ولد فيها والناس من حوله لا يعرفون الراحة والطمأنينة، واتخذوا موقفاً معادياً له، إنهم يعيشون في مأساة، لأنه بالنسبة اليهم عقرب تلدغ في الصدور، ودود يحفر في القلوب، إنه عدو لدود، إنه مرض خبيث.

لقد اجتمع الناس وفكروا وتدبروا في طريقة لكيفية التخلص

من هذا الولد المزعج الذي أصبح حقيقة ملموسة في التاريخ وواقعاً نعاصره في الحياة كلها ليس بالأمر السهل، لأن «حدود» ذكي ومحتال ويعرف كيف يعيش، وهو كثير الظن بطبيعته ولا يثق في أقرب المقربين اليه وهو الوريث الوحيد الذي تبنى عليه آمال وتصورات المستقبل وتحاك له خطط الراحة والرفاهية.

من هنا بدأ الأهالي بالتذمر من وجود «حدود» بينهم لأنه كلما قوي هو، كلما ضعفوا هم، وفكروا جدياً في جدوى وجود وحياة «حدود». فطالبوا بضرورة التخلص منه وحقنه بمضادات تحد من نموه وتمنع اتساع رقعة نفوذه حتى يدركه الموت المرجو لانقاذ الناس من شر الورطة التي وقعوا فيها. عايشوه منذ طفولته ولم يلقوا منه الا التعاسة والحرمان والاضطهاد، فهو مصدر الانانية والتوتر النفسي والتخلف وفقدان راحة البال. الاهالي مستمرون في خطة القضاء على «حدود» لأنهم حكموا عليه بعدم لياقته أخلاقياً، وأصروا على رفضه وعدم التعامل معه ولن يتقبلوا منه مزيداً من الاهانات.

ولكن في الآونة الأخيرة سمع الناس أن «حدود» يمارس رياضة كمال الأجسام والملاكمة استعداداً لجولة جديدة!

****

السحلية

«سحلية» كاتبة معروفة بين الأدباء والكتاب ومحرري الصحف ورؤساء التحرير، تتحلى بالوطنية والاخلاص والتفاني. لها عقلية محنكة أدبية من الطراز النادر، لا تمسك قلماً إلا وينساب حِكماً وأمثالاً تتناقلها ألسنة البلاد. نالت إعجاب وتقدير كل من قرأ لها حرفاً وسمع لها صوتاً، غير أن سحلية قررت في الفترة الاخيرة تعليق قلمها بين أدوات المطبخ ليكون شاهدا على جرائم الافرازات الثقافية التي هي نتيجة طبيعية لوضعية سيئة. النية كانت تتجه لكسر القلم حتى يسيل حبره دماً على أرض اشتاقت لأهلها، والكلمات بكت حزناً من أحرفها، والمعاني تعطشت لحقيقتها.

قال القلم: اشتقت للكتابة، فقالت: يا قلم حبرك غالٍ على ناس يجهلون قيمة الكلمة فلينساب دمعي جمراً لأتأمل من خلاله دنيا عجزت عن أحداثها. أتألم من تألمك في مجتمع لا يعبر عن شجونه إلا من خلال رقابة حنطت الأجساد، وجعلت من الأموات أحياء ومن الأحياء أمواتاً في سبيل مبادئها.

أصبحت الكلمة معناها الطاعة ومن خرج عنها استحق اللعنة، هي الكلمة التي عزت كرامتها أن تكون للمتاجرة وأبت إلا أن تذوب اشتعالاً واضطهاداً وأن تهاجر الى الأفق بين النجوم، على ظهر الرياح، فوق الجبال.

عندما تروي سحلية قصتها من البداية وكيفية تطورها الى أن

أصبحت اليوم كابوساً مخيفاً، تذوب القلوب كشمعة محترقة والدموع تجري في الأودية كروافد ضاقت بها أنهارها. سحلية ترفض أن تكون كالحرباء متقلبة الألوان حسب ظروف الحاجة، فما أبخس كلمة قيلت في الممدوح لغرض في نفس صاحبها.

كما تقول إن البداية كانت في اجتماع مجلس البرلمان الذي انعقد في منتصف الشهر الماضي والذي تحدثت فيه باسهاب وقالت بالحرف الواحد «أنا إن دخلت كتاباً لا أخرج منه إلا بمعجزة». مما أثار حيرة وذهول الأعضاء الذين اتخذوا موقفا معاديا واعتبروا قولها هجوماً صارخاً على كرامتهم الشخصية، باعتبار قول كهذا يجب ألا يقال في الاجتماعات الرسمية والأماكن العامة، وبالذات لأن أغلبية ممثلي الشعب تجهل القراءة. قول كهذا لا يجوز أبداً ويجب ألا يسمح به لأن أعضاء المجلس عندهم عزة وكرامة وشهامة.

وإليكم بيان مجلس البرلمان «يا جماهير أمتنا.. إننا نناشدكم بالتصدي والوقوف بحزم صارم ضد المخربين الذين يتزايد عددهم يومياً، وفي هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ أمتنا نناشدكم بأن هذه الفئة المخربة لن تكتفي إلا بهلاكنا وحرماننا من رواتب خيالية وامتيازات ذات فائدة.

إننا نطالب بإصدار مرسوم يمنع السحلية من الكتابة حتى نكون جميعاً سواسية، وهذه هي العدالة الاجتماعية والانصاف الاقتصادي».

وحتى يكون الجميع سواسية دونت سحلية بدورها وقائع

الاجتماع العاصف، وبعد أن أكملت موضوعها ليكون الرأي العام على اطلاع كامل ببواطن الأحداث، توجهت مسرعة الى مكتب الصحيفة وقابلت المحرر المختص في شؤون قضايا الناس. شرحت كل ما حدث بتفصيل ودقة متناهية وحقائق واقعية أذهلت المحرر وأقنعته دون شك، فوعدها خيراً بأن موضوعها سينشر مع بزوغ أول فجر جديد.

أجهزة الاعلام تتناقل بشرح وافٍ وجهة نظر الاعضاء وتردد محتويات المرسوم الذي صدر ضد سحلية، وسحلية ما زالت تنتظر بزوغ أول فجر جديد لم يبزغ بعد. قالت ودمعتان تتلألآن في عينيها: جالت الأشواق بخاطري وفي صدري همسة تعانق الأحزان همستي، بكيت ومن بكائي سالت أدمعي كأنها دم من أضلعي، آه من حزن ومن الآه في جوارحي. هي الكلمة الحرة وداعاً والى أن نلتقي. وعلقت قلمها بين أدوات المطبخ وهي تبكي.

****

الخروف الضاحك

قرر الخروف الضاحك أن ينام نوماً هنيئاً في ليلة هادئة يخيم عليها ظلام مخيف بعد يوم شاق وطويل لم يهنأ فيه بلحظة فرح أو بدقائق سعادة وسرور. في دنيا يتزاحم فيها الأقوياء وكبار اللصوص لنهب مقومات حقوق أناس مستضعفين ومحرومين ومغلوبين على أمورهم.

ما إن أغمض جفنيه وذبل في فراش الأوهام واستراح من عناء الروتين اليومي والبيروقراطية حتى بدأ يحلم وهو يعلم جيداً في باطن نفسه أن لا رقابة إطلاقاً على الأحلام في بلاده، وهي متاحة للجميع بمختلف طبقاتهم الاجتماعية بعكس واقع الحال الذي لا يستفيد منه إلا ما قل من أناس خصوصيين للغاية ومقربين حسب قوة روابط المصالح الشخصية. الملعون الخروف الضاحك حلم أنه يعيش في بلاد اسمها الامارات ولكنها عبارة عن جزيرة صغيرة نائية في أعماق المحيط الاطلسي، وحلم أيضاً أن السعودية ولاية تابعة لأميركا. استمر في ديباجة أحلامه وكأنه يعيش عصر الانحطاط الذي لا يستطيع المرء أن ينطق فيه بما يعتقد ويظن إلا من خلال الأحلام فقط.

من غرائب أحلامه التي لا تدخل مجال المنطق ولا تستوعبها العقول السليمة هي ان بعض قادة الأمة لهم مصالح مشتركة ومنافع شخصية مع قادة الكيان الصهيوني.

كل ما يقال عن فكرة الاعلان عن الجهاد المقدس وحرب

التحرير الشاملة والمقاطعة الاقتصادية والمفاوضات الجانبية والمؤتمرات المنعقدة حول المصالحة بين أبناء ابراهيم، والى ما هنالك من مغالطات ومخادعات طفحت بها الصدور وامتلأت بها المجلدات التي تخلد ذكرى نقطة سوداء في تاريخ أم ضحكت عليها الأمم بسبب الجهالة وعدم المبالاة والغيرة على المصالح العامة وسياسة التهويد والتجويع والتخويف والترغيب والمخادعة. كل هذه مجرد تغطية لموضوع جوهري مهم مفاده أن استمرارية اسرائيل في الوجود هي تكملة لاستمرارية الأنظمة المعروفة بابتعادها عن شعوبها في البقاء في الحكم. كيف؟ نتصور ولو للحظة أن اسرائيل قد امّحت من الخارطة بين ليلة وضحاها، وهذه هي لذة الأحلام، فبأي قضية سنتاجر؟ وهل يعقل أن لا تطالب الشعوب المقهورة والمضطهدة بالتغيير للصالح العام؟

أحلام الخروف الضاحك حقاً عجيبة، فنحن لم نسمع قط عن العلاقة الودية التي تربطنا مع عدونا الصهيوني، فيأتينا الخروف بحلم يكشف فيه أسرار الغير، وهذا بدوره مناف للأخلاق والأعراف، ولكن ما هي قانونية الرقابة الحكومية على هواتف ورسائل الغير ومراقبة البيوت والتجسس على خصوصيات الفرد في المجتمع؟ ويأتي الخروف بحلم آخر وآخر يعلن فيه رداءة الأوضاع في مجتمعات النفط الغنية التي يعجز فيها المواطن عن الحصول على مأوى وعن دفع فواتيره المعيشية.

كلما حاول الهروب سابحاً من تلك الجزيرة النائية الواقعة في

أعماق المحيط الاطلسي، شعر وكأن تياراً قوياً يجذبه اليها لكي يشاهد معالم النهضة الحضارية المتقدمة وجمال مدارسها وروائع نواديها ومتاحفها وفساحة حدائقها. فدخلها مبتسماً مسترسلاً في أحلامه وهو يسأل عن بدائع الدنيا الجميلة التي يشاهدها في هذا الحلم، والذي لم يحلم قط في حياته بأنه في ليلة ما سيحلم بهذه المناظر الخلابة، لأن أحلامه عادة في الماضي عبارة عن كلب متوحش يعض رجله، أو قطة تغرز مخالبها في وجهه، أو أن البلدية بدأت في رصف الشارع الرملي الممتد بغباره أمام باب منزله.

من خلال تجواله في أرجاء الجزيرة وهو ما زال في سبات نوم عميق اكتشف أن طرقهم الخارجية نموذجية حسب المواصفات العالمية ومكتملة وأنوارها تبهر الأعين على الجانبين. فيها الاشارات المرورية واضحة وحولها أسيجة لمسافات طويلة لمنع الحيوانات السائبة من المرور وقتل الأبرياء، لأن حياة الانسان هي المحور الأساسي الذي تتخذ منه السلطة أهدافاً ونوايا لسياستها الداخلية والخارجية على السواء. عرف أيضا أن مصلحة المجاري تتبع أحدث السبل لمعالجة وتطوير النفايات لاستعمالها في ري الحدائق العامة وانتاج المواد الكيماوية، وأن جميع «البواليع» في البلاد قد تم الاستغناء عنها مما جعل الروائح الكريهة المعروفة تختفي تماماً من المدن والقرى، وحلت محلها صهاريج محملة بالماء الممزوج بعطر للزهور تدور في الشوارع السكنية والتجارية والساحات العامة لتعطيرها وخلق جو صحي يساعد على الانتعاش الذهني، ويقدم انطباعاً رائعاً يصعب اقتلاعه

من النفوس. شاهد في حلمه شعباً يرقص فرحاً ويهتز طرباً ويطير عزاً، فحين استفسر عن السبب أخبروه بأن البلاد أصبحت واحدة بعدما كانت في الماضي سبع دويلات. هذا ما سيسجله التاريخ. وأن المدخول العام يصب في ميزانية واحدة وحيدة بعدما كانت الأموال العامة تهدر في سبع خزائن ضعيفة، هذا ما سيسجله التاريخ. وأن الحدود الداخلية قد زالت من دون رجعة بزوال الاقليمية الاستعمارية وأصبح المواطن حر التصرف والتنقل من دون قيود مصطنعة في وطنه، وهذا ما سيسجله التاريخ.

ما إن فتح عينيه في الصباح حتى سمع صوت محرك «يشفط» بالوعة الجيران الفائضة والتي انسابت أوساخها في السكة منذ عدة أيام، فتذكر أن ما رآه مجرد أحلام ليلية، وأن صوت المحرك هو واقعه المرير الذي يعيشه بأحزانه وأوهامه المريضة.

****

الثور والبقرة

كان الثور رابضاً تحت شجرته عندما مرت عليه البقرة وهي في حالة غير طبيعية و«زعلانة» جداً من المعاملة السيئة التي تتعرض لها في معاملاتها وحياتها اليومية، وما إن رأته حتى حثت السير تحاول اجتناب رؤيته. لمحها من طرف عينه وناداها معاتباً على ما بدر منها ولكن مزاجها مضطرب ولا يسمح لها بالمجاملة. هي ما زالت تتذكر في احدى المرات السابقة بأن الثور قد طلب منها عدم مخاطبته بطريقة استفزازية لأن - كما قال - كل واحد معرض للخطأ، واننا جميعاً نعمل للصالح العام ورفاهية الجميع، فإذا أرادت الانتقاد فيجب ألا يغيب عن بالها الاسلوب الذي لا يتعارض مع القوانين الوضعية. فدار بين الاثنين حوار طويل للغاية نال رضى ومحبة الثور وتقديره الفائق لهذه البقرة الوفية التي تقدر معنى المسؤولية. وبعد انتهاء هذا الحوار ذهب الثور ليخبر أقاربه والمقربين منه عما قالته البقرة والاشادة بدوره ونشاطه الحيوي الفعال في المجتمع. فماذا قالت البقرة يا ترى؟ إليكم ملخص ما قالته البقرة للثور والذي نال رضاه وإعجابه الشديد:

يا أخي عندك عقلية نوعاً ما غريبة الاطوار، وهذه ليست إهانة ولا أنت مجنون ولكنك تميل دائماً للامعقول. عقلك يعمل ولكنه لا يستوعب كل ما هو جديد، فأنت تفكر بأسلوب لا أقول عنه سيئاً للغاية ولكنه من مخلفات القرن الحادي عشر ميلادي، وأفكارك

نوعاً ما متحجرة جداً. هذا ليس معناه يا أخي أنك متخلف ذهنياً ولكنك لا تفهم شيئاً بتاتاً عن أسلوب التعامل مع تطورات العصر. أنت تتعامل مع الأشياء بذهنية وطريقة جامدة، يا أخي الحجر أحيانا يلين ولكنك أنت أبداً، وكأنك لم تقرأ الكتب الفلسفية وفلسفة التطور الديالكتيكي التي تؤمن بتطور الاشياء حسب المراحل، وان الحياة والكون في حركة مستمرة. عقلك تخلف بعيداً على مسافة عدة قرون من وقتنا الحاضر، وهذا ليس معناه يا أخي أنت رجعي ولكن الأفكار التقدمية والمعارف الثقافية لم تتعرف عليك بعد هذا مرده أنك ما زلت تفكر بأسلوب بدائي وتطالب بتطبيق مفاهيم اجتماعية قديمة. يجوز أنها كانت مناسبة لتلك المرحلة التاريخية، وهذا يخالف وينفي أيضا بدوره نظرية التطور التي أوصلتنا الى الفضاء الخارجي.

شخصيتك أيضاً يا أخي، فلا أجزم وأقول إنها فقدت جاذبيتها ولكن لم يعد هناك شيء يبهرني ويجذبني اليك. وسامتك وأناقتك لم تعد ذات التأثير السحري، وابتسامتك ذبلت، منظرك الخارجي في حاجة الى تعديل وربما من الصعب تعديله ليناسب الظروف الحالية. كما تعلم لقد خدعتني لفترة وجيزة وذلك حين أعطيتك ثقتي العمياء، ولكن حين فتحت ناظري لم أر ولم أجد إلا نفوذك السلطوي على الذين من حولك. لم أنتبه إلا بعد فوات الأوان، فضاعت شخصيتي وكرامتي الذاتية وكدت أن أصبح واحدة من اللواتي انخدعن بمالك وثرائك الفاحش وبمظاهرك الخارجية، وما الحقيقة المعروفة إلا هي أنك ثور.

لا أستطيع أن أؤكد القول إنك جبار تناطح السحاب بتكبرك على رفاقك، ولكن يا أخي جميع الذين يزورونك لا يستأنسون بمجلسك ومن حديثك ويقولون عنك قصير النفس لا تحب جماعتك ولا ترد التحية. يقولون إنهم يسمعونك كثير الدمدمة ولا يعرفون اذا كنت تشتمهم على زيارتهم لك. لا أشكو من تصرفاتك مع الناس ولكن أقول يا أخي ما جاءك أحد إلا وخرج يبكي. تصرفاتك المتحاملة على الناس تعكس تعاستك الماضية، وهي لم تكن أبداً موضع شك وتساؤل، ولكن الناس لهم مشاعر ناعمة وأحاسيس رقيقة قابلة «للانجراح» بكل بسيطة. فما بالك حين تكيل لهم من الكلام ما أشده قسوة؟ هذه المعاملة السيئة في الحديث والتصرفات والمعاملات لا نسمع من يتذمر منها، ولكن يا أخي أفهم، أنك أنت الشقي الجبار فإذا سمعت عن شكوى ستقضي على صاحبها بدلاً من مساعدته على حلها. طبعاً الأوضاع هادئة ولكن ليس معناه أن الناس مستريحون وراضون عن تصرفاتك. هذه التصرفات لا تعجبهم وفعلاً فزت بكراهيتهم لك، ولكن الخوف الذي ينمو في قلوبهم كلما زادت قوتك وثروتك يقف حاجزاً. أما عن اشتداد هيبتك وقوة بطشك، فمرجعه أن الناس تأخذ من الأمل وسيلة. كرامة الفرد من كرامة المجتمع التي هي خلاصة كرامة وطن. أنا لا أقول يا أخي إنك لا تحب وطنك ولكنك لم تفعل شيئاً يثبت عكس هذا. وبالعكس، كل الذي نراه جميعاً يصب في مفهوم اللامسؤولية واللامبالاة حتى نكاد نجن من تصرفاتكم المكشوفة، فما بالك من تصرفاتكم السرية؟

طبائعك يا أخي يمكن ألا تكون شرسة ولكن غرابة أطوارك لا

تنفي هذه التهمة، وتهكمك المستمر على الآخرين لا تفسير له سوى أن عجرفة وخشونة مزاجك وثقله لا يتوقف عند حد ولا تكتفي إلا بإلحاق الضرر بضحيتك. مزاجك لا مبرر لتقلباته فأنت يا أخي صعب المزاج إجمالاً. يمكن المرء يعتقد من محاولته لتوثيق وخلق مشاعر متبادلة معك أن يصل الى نتيجة أخوية إيجابية، ولكنك ما إن تكتشف الهدف إلا وتثور ثائرتك وتفقد أعصابك وتحطم كل ما يوجد أمامك.

من خلال هذه الشخصية الفريدة لا يستطيع الانسان إلا وأن، لا أقول، يبتعد عنك ولكن يتجنبك حفاظاً على سلامة حياته وكرامته الانسانية. فضائلك يا أخي يجوز أن لا تكون بتلك الصورة القبيحة التي أتخيلك فيها، ولكن تفاقم سيئاتك خطر يهددنا جميعاً. هذه السلبيات قد طفت على حسناتك اذا كنت تحتفظ بما تبقى منها، فأنت لا تُعرف إلا من خلال هذه السيئات التي تتقمص أشكالاً رهيبة. نادراً ما تقوم بعمل جليل ولكنك ما تلبث ان تنهيه حتى تلحقه مباشرة بأضرار فادحة تسبب خسائر جسيمة لكل من يتواجد بقربك. لا أعرف كيف أخبرك ولكنك اذا رأيت أني قد أخطأت بحقك فاعذرني وتقبل أسفي وهو أنك أنت يا أخي ثور لا تفهم ما يدور حولك.

****

الديك يفقد صوته

قصة فقدان الديك لصوته الذي يتباهى به ليست وليدة لحظتها، وليس العجيب أنه فقد صوته إنما كل العجب يكمن في عدم فقدانه لصوته من قبل؛ مما جعل الناس تحتار، وتتضارب الآراء حول قوته ورباطة جأشه وشدة بأسه في معالجة أموره الخاصة، وتفننه المميز في المحافظة على سلامة صوته. يتفاخر بقوة ذكائه وجمال ريشه وشطارته عن الآخرين في طلقات الصيحات المتتالية، وغالبا لا يستطيع إخفاء سخافته عندما يجري وراء الدجاجات المسكينة وهي تطلق صرخات الاستغاثة، هذا الديك يحب متابعة الأخبار وتحليل الأحداث، فنراه يشتري الصحف والمجلات، وبيته لا يخلو من مجلات ميكي ماوس والسوبرمان والرجل الوطواط. وهو كثير الزعل دائم الغضب، لأنه يعتقد أن وزارة الاعلام هضمت حقوقه ولا تسمح له بمعرفة الحقائق كاملة، مما جعل الوزارة تنذره مراراً وترسل له اخيراً رسالة شديدة اللهجة. إلا أنهم تناسوه في الآونة الأخيرة، لأنه كما قالوا ديك ولا يستحق كل هذه الضجة الاعلامية ودق الطبول، خصوصا وأن هذا الديك إذا سمع طبلاً سيغني وسيرقص في الساحات العامة ليفضح استراتيجيتنا المنهجية المدروسة.

يجلس الديك في المقهى الشعبي المطل على المياه الدافئة يقرأ ويتصفح صحيفته اليومية، وبينما هو يقرأ من اليمين حسب المعتاد، يبتسم تارة ويقشعر بدنه تارة أخرى حسب اندماجه

ومتابعته واهتمامه للأخبار المسموح له بقراءتها يرى الآخرين منهمكين في قراءة الصحيفة من اليسار وليس من اليمين كما هي عادة اللغة العربية. يظن أنهم أجانب من الغرب ولكن وجوههم وبشرتها تدل على أنهم مواطنون. يقول ربما هؤلاء المواطنون يعشقون الصحف الاجنبية، فيرفع رأسه ليرى أن ما يقرأونه هي الصحيفة نفسها التي بين يديه. يا ترى ما هو السر في قراءتهم لها من اليسار وليس من اليمين، ومن على خطأ؟

ظل على هذا المنوال يفكر ويحلل ويراقب الحركات وتعابير الوجوه والتأثرات والانطباعات والتشنجات، ولأن ميزة الديك هي صوته فقد استغله في الاستفسار عن حقيقة مجريات الامور الداخلية التي جعلت الناس يقرأون الأخبار بالمقلوب. هل حالة المجتمع أصبحت مقلوبة الى هذا الحد، أم أن الوضعية تتحكم بالقدرات الفكرية؟ يعرف الديك أنه حلو الصوت، ولكن ليس معنى ذلك أن يتتبع الحقيقة مستفسراً عن الاوضاع حتى يفقد صوته من كثرة النقاش والحوار، فلا بد من وجود وسيلة يعرف من خلالها حقيقة القراءة المقلوبة. التعتيم الاعلامي بدوره لا يساعد على انفتاح ذهنية الديك الذي لا يستغل عقله على أكمل وجه بسبب الوضعية التي يعيشها، ولكنه يعتز ويفاخر بصوته، لأن هذا هو كل ما يملك من موهبات لا ينافسه عليها أحد سوى المسؤول نفسه. من هنا عُرِف عنا بأننا شعوب كثيرة الكلام قليلة الأفعال.

الصدفة وحدها هي التي حلت له لغز القراءة بالمقلوب، ولكن الجهات الرسمية تتهم الديك، فعندما علم بالحقيقة حزن حزناً

عميقاً وتأثر نفسياً من حالة اختلال التوازن وعدم المبالاة. بالأمس كانت مباراة في كرة القدم وكانت تنقل بالاذاعة والتلفزيون ومن متابعته المستمرة للصحف اليومية يعرف أن الاخبار الرياضية تنشر في الصفحات الأخيرة. وهنا استنتج الديك أن البعض يهتم بتسجيل الأهداف، ولكن يا ترى أي هدف منها، هل هو الهدف الذي تم تسجيله في المباراة، أم أنه الهدف الوطني الذي نسعى جميعاً من أجله؟ فدخل في متاهات فكرية لمعرفة الفرق بين كلمتي الانتساب والانتماء، وتساءل اذا كان المشجعون المتعصبون ينتمون الى النادي أم الانتماء فقط للوطن.

حلل الديك القضية وتناولها بطريقة مدروسة، وبعد فترة وجيزة من التفكير والتحليل أخبرنا بصوت هادىء ما يجول في خاطره، فقال: لعبة كرة القدم رياضة شعبية دولية تعشقها الجماهير باختلاف طبقاتها ومعتقداتها، ولكن السلطات التي تعشق كرة القدم لا تتناسى أبداً بقية اللعبات الرياضية بل تشجعها.

الدول الراقية تبني الانسان من منطلق الرياضة هواية واحتراف، ومن هنا ومن حيث المفهوم تصبح كرة القدم إحدى اللعبات المتطورة بتطور المجتمع وليس صحيحا ان يتطور المجتمع بتطور كرة القدم كما يحدث عندنا. يقول الديك إن المجالس الرسمية تخلو من كل الحوارات المفيدة إلا من الحوار عن كرة القدم والفريق الفائز. المطلوب أن تتطور كرة القدم بتطور

جميع قدراتنا الرياضية، والذي يحدث مخيباً للآمال وهو أننا شعب نتطور بتطور كرة القدم. هذه كارثة وخيمة تخيم علينا ولا بد من مواجهتها.

بعد كل هذا، لم تتمالك وزارة الاعلام أعصابها فانهارت وأرسلت تهديداً ووعيداً في رسالة مغلقة معنونة باسم السيد الديك على ما بدر منه لمعرفة سر القراءة بالمقلوب واستغلال صوته الجهوري لكشف الحقائق والأدلة والبيانات.

افتقد الناس صيحات الديك اليومية خلال اليومين الماضيين، فقرروا زيارته في منزله والاطمئنان على صحته وأحواله الاجتماعية، فاندهشوا حين لم يسمعوا صوته، وهذا يعتبر تصرفاً غريباً مخالفاً للطبيعة، ولكنهم عرفوا أنه فقد صوته وما زال تحت العلاج وذلك من كثرة المناقشات التي خاضها في الأيام القليلة الماضية.

هذا ما كتب لهم هو على ورقة صغيرة، ولكن الزائرين ليسوا بتلك الغباوة فهم يعرفون بأن فقدان الديك لصوته له علاقة مباشرة برسالة التهديد الشهيرة التي استلمها من الوزارة.

النسناس

دخل أحد الناس حظيرة الحيوانات بطريق الخطأ، فاندهشت جميعها من هذا التصرف اللامسؤول والتطاول عليها والتدخل في أمورها الخاصة. سادتها موجة من الغضب والهيجان، فقررت الاجتماع ومناقشة الوضع على ضوء التطورات الاخيرة، واستشارة عقلائها بخصوص هذا الموضوع الحساس. عرف كبير الحيوانات من أول وهلة أنه أمام وجه مألوف قد سبق وعرفه حين اشترك في إثارة المشاعر وتجريح الغير عندما تسبب في قتل الشاب النشيط صاحب التاريخ المجيد المرحوم «الجمل». عرف أيضاً أن هذا الحيوان الأليف أحياناً، صاحب الرجلين المستقيمتين يعود تاريخه الى ما قبل عهد الطوفان، وتعرف عنه أطواره العجيبة وأنه من فصيلة الانسان. إلا أن كبير الحيوانات لم يعد متأكدا من هذه الوقائع الملموسة لكبر سنه وضعف ذاكرته، فقرر أن يرسل برقية مستعجلة الى مقر البعثة في جنيف للاستفسار عن تاريخ وسوابق صاحب الوجه المألوف، وإن كان فعلا من الناس. جاء الرد على آلة التلكس يؤكد صحة تنبؤات كبير الحيوانات، إلا أن هناك خطأ مطبعياً طفيفاً ورد في كلمة «ناس» لتصبح قراءتها «نسناس» مما زاد من حدة غضبه وخيبة ظنه للخطأ الجسيم الذي ارتكبه بحق هذا المتطفل الصغير.

فوراً تحركت البجعة بخطوات ثابتة ترتدي بدلتها الزرقاء ويتقدمها الفأر والسنجاب لالقاء القبض على النسناس تنفيذاً

لأوامر صادرة من جهات عليا بتهمة الدخول الى البلاد بصورة غير مشروعة والتسلل الى حظيرة ممنوع التصوير أو الاقتراب منها. حاول الانسان الدفاع عن نفسه وقام بعدة محاولات للهروب باءت جميعها بالفشل. فأخذوه الى غرفة الاستجواب لمعرفة أسماء بقية المخربين الذين اشتركوا معه في العملية الاجرامية. وقال إن اسمه خير البشر ولد شمس النهار وإنه ينتسب الى قبيلة «آل أهبل» صرخت البجعة حتى اهتزت جدران الغرفة تستنكر ما تسمع، لأن هذه الانتسابات أوبئة معدية ستحد من انتشارها في الحظيرة وأنها كما قرأت في كتاب «الانسايكلوبيديا» مصدرها فئات وطبقات المجتمع البشري. حين سألوه عن عنوانه ارتبك وخاف ولكنه رضخ تحت إصرارهم المتواصل لمعرفة عنوانه الكامل، فاعتدل في جلسته وقال: أسكن في البيت الخامس من على جهة يمين الدوار، في الشارع الرملي بعد الوادي على بعد خمسة كيلومترات من الشارع الرئيسي.

تعجبت البهائم من هذا الجواب واعتبرته إهانة بحق الحاضرين، فقررت جلده وإنزال أشد العذاب به.

وبعد الانتهاء من الضرب والاستجواب بدأوا يضحكون على أنفه المكسور وعلى الكدمات البارزة على وجهه المجروح. الى الآن ما زال يصر على أنه مظلوم، وأنه فعلاً ما زال من الناس، وكل ما ورد في التلكس خطأ مطبعي لا علاقة له بالواقع.

وضعوه في غرفة جانبية وفي صباح كل يوم يبعثون له الخبز والعدس مع الارنب، وقبل أن يسلمه الطعام يسأله الارنب: آأنت

نسناس أم ما زلت انساناً؟ بعد أشهر من السجن وانقطاع زيارة الخلان تمت الموافقة على إحالته للمحكمة والنظر في قضيته بحضور ممثل عن وزارة الداخلية والدفاع.

عقدت الجلسة برئاسة المستشار وحضور وكيل النيابة ونائب المدعي العام والمتهم ومحامي الدفاع وهيئة المحلفين، وتخلف عن الجلسة ممثل وزارة الداخلية والدفاع.

بعد تلاوة التهمة المسندة الى المتهم المدعو خير البشر ولد شمس النهار، سأله القاضي اذا كان مذنباً فأجاب بالنفي. طلب من وكيل النيابة تقديم بيناته وشرح ظروف ملابسات الحادث وكيفية إلقاء القبض على المتهم واذا كان الوقت نهاراً.

التهمة الأولى: الكذب والخداع، فبينما جميع التقارير والوثائق الرسمية تؤكد وحسب اعترافات الشهود أن المتهم هو نسناس. إلا أنه ما زال ينكر ويراوغ من أجل اضاعة الوقت ويدعي بأنه إنسان. هل يعقل هذا يا سيدي؟ ماذا يقول محامي الدفاع؟ اترك الأمر للمحكمة. فليكمل وكيل النيابة.

اما التهمة الثانية :فقد ألقينا القبض عليه متلبساً بالجرم المشهود، وبخصوص هذا فلا حاجة بنا للشهود. ماذا يقول محامي الدفاع؟ احتفظ بالرد فيما بعد. فليكمل وكيل النيابة.

أما التهمة الثالثة: الأخطر والأشد هي زعزعة أركان النظام وإثارة الفساد ومطاردة البنات. لم نتمكن من العثور في موقع الجريمة على جواز سفره أو هوية رسمية أو بطاقة عمله. ماذا يقول محامي الدفاع؟ إني ما زلت أسمع.

أصدر القاضي حكمه بعد سماع المداولات والمرافعات التي قام بها محامي الدفاع وبعد أن اقتنع بما جاء على لسان وكيل النيابة من أدلة قاطعة وبينات أثبتت دون أدنى شك تورط المتهم في التهمة المسندة اليه حسب الوثائق الرسمية التي وصلتنا من جنيف، بأن لا روابط له بالجنس البشري إطلاقاً، وكل ما قام به من ادعاءات خرافية لا صلة لها بالموضوع. فقد قررت المحكمة علناً إعادة المتهم الى أصله الصحيح وإلزامه بدفع أتعاب المحاكمة والمحاماة.

في اليوم التالي بعد إصدار الحكم جاء الارنب حسب العادة يحمل الخبز والعدس، وعندما سأله اذا كان اليوم ما زال من الناس، أجابه: أنا نسناس ابن نسناس وفي حاجة الى حبة فستق.

****

الشجرة

سألت الشجرة الصغيرة أمها وهي تحت رحمة الحطّاب الغاضب:

أماه كيف لي بالموت وأنت أمي التي تقولين سهرت الليالي من أجل تربيتي وأنا صغيرة، كيف لي بالحياة من دون عطفكِ الذي لم أشعر به أبداً في حياتي؟ عشت بأحضانك مخدوعة بحنانكِ في ليالي نيسان البديعة. ألا ترين العدوان الغاشم سيقتلعني بعد لحظات من جذوري بفأسه الغليظة، وسأصبح ضحية لعدوان تتعرض له الشعوب الضعيفة؟ أنا في متاهات الضياع المعروفة ساعديني سأفتقد صحبة أم عزيزة.

الأم: قلبي يخفق من أجلك ويفيض مودة، روحي سأقدمها لخاطر عيونك الجميلة، ولكن تدخل القوى الخارجية في شؤوننا الداخلية جعلني هزيلة ضعيفة لا أقوى على التحدي ومواجهة أزمات العصر الحديث، فأصبحت في وضعية قاسية لا أطيقها. المبادرات المطروحة على الساحة لا خيار فيها سوى إهانتنا والقضاء على وجودنا، فكما تعرفين ما أثمن الحياة عندي وما أحلاها، ما أجمل وأعز العروش الرفيعة. سأتخلى عنك حبيبتي وقرة عيني، سأتخلى عنك يا من أحببت في حياتي من أجل كرسي عشقته وأصبح شاغلي في منامي. سيرتبط مصيركِ يا بنيتي من أجل مصلحتي الشخصية بمصالح القوى الاجنبية المرابطة والمتواجدة في المنطقة.

الشـجرة: كيف يا أماه تتركينني أواجه مصير الموت وحيدة وتنبذينني استعداداً لتقديم حياتي ضحية من أجل كرسي في دنياك التي لا تتحدث عن الروابط الانسانية، إلا من باب المجاملة والدعاية الاعلامية التي تكرس العبادة الشخصية.

الأم: يا بنيتي أنت ما زلت صغيرة السن طرية العود بريئة لا تفهمين خفايا الكواليس الرهيبة، ولا المحاور السياسية التي نلعب عليها، ولا الأحلاف العسكرية التي انضممنا لألويتها تحت أسماء رقيقة كالتعاون والتفاهم والمصالح المشتركة. حين ربيتكِ صغيرة اعطيتك دروساً مستفيضة حول العادات والتقاليد واحترام الأكبر سناً حتى ولو كان كبشاً لا يفهم. تجاهلت وجودكِ كإنسانة ذات شخصية مستقلة وعقلية مميزة، واختلفت معكِ كثيراً حول المبادىء الأساسية للتحرر الذاتي والكرامة الانسانية ومعالجة التخلف والمساعدات الخارجية.

الشـجرة: أتحدث عن مصيري المرتبط بوحدة التكامل وبمزاجكِ الغريب المتقلب، ورغباتكِ الأنانية التي مالت بعيداً عن مصالح بقية الشعوب وأبنائكِ المخلصين.

انت يا أمي شجرة جذورها تشرب من الداخل لتطعم أفواه من في الخارج حسب متطلبات وشروط اللعبة. تعلقت بكِ كثيراً كأم حنونة، فضاعت أحلامي وزادت آلامي وانكشفت مساوىء وبانت حقائق مجهولة. يؤثر هذا التصرف على علاقتنا النابعة من قلبي والتي تربطني معكِ من طرف واحد، لأن قلبك لا يفيض إلا للمال والجاه والسلطان. حين أناديك وأقول أماه رحمة بابنتكِ الصغيرة

والحطاب سينتزعني من بين يديكِ، تقولين ارتباطكِ بالقوى الخارجية والمجاورة أدى الى تفكك روابطنا العائلية ولا وجود إلا للمصالح الشخصية والانتهازية. هذه نظريتك وفلسفتك في الحياة السياسية، فما موقفي بعد اليوم تجاه أم فقدت عواطف الأمومة؟

الأم: تطور النقاش يؤدي الى معارك جانبية نسعى جاهدين لتجنبها حفاظاً على وحدة الصف الداخلي، وإننا نجند كل الامكانات المتاحة في مواجهة عدونا المشترك، ونطالب بضبط النفس وعدم الادلاء بالتصريحات لمندوبي الصحف.

الشجرة: إننا نتكلم بصدد حياتي التي سأفقدها في أية لحظة لسوء حساباتكِ وتقديراتكِ الخاطئة وخططك الفاشلة وحبكِ لذاتكِ الانزوائية، كان بالإمكان تقويتي سياسياً واقتصادياً لمواجهة وتحدي كل التطورات والانتكاسات المزمنة التي تمر علينا.

الأم: لا تقاطعيني حبيبتي، فأنا أكره الحوار، لأني كما قلت من لحظة إن النقاش المطول يؤدي دائماً حسب اعتقادي الى صدامات دموية نحن في غنى عنها. تأكدي أن الأقدار هي التي تتحكم بمصيركِ، ولولا الأقدار لما جاء الحطاب غاضباً إليك.

الشجرة: ما جاء إليّ إلا بسبب ضعفك وتهاونك في معالجة المستجدات ودعواتكِ المتكررة إليه من أجل حمايتكِ، حمايتكِ ممن؟ تطلبين مني الموت إكراماً لاستمراريتك في الحكم على كرامة وجودي. تطلبين مني التزام الهدوء والسكينة وعدم إثارة البلبلة في مجتمع متوتر يخاف على مستقبله ويكافح من أجل

القضاء على مخلفات الماضي بأحزانه.

الأم: لا تبكي يا طفلتي الغالية، فبعد ثوانٍ سيهبط عليك الحطاب بفأس الموت وينتهي كل شيء، وستموتين شهيدة كريمة، وسأبرز أنا زعيمة شعبية معروفة أساعد الضعفاء والفقراء والطبقات المحرومة.

الشجرة: لن أموت ما دامت الحياة في عروقي تسري وسأناضل من أجل حياة جديدة. لقد طابت نفسي منك وعرفت نواياك الخبيثة.

****

الجمل

عندما رأيت الجمل هائماً على وجهه في مهالك الدنيا ظننت أنه للمجد ساعٍ، ولكني عرفت بعد ما حدثته أن له في التعاسة مضجعاً. هربت خوفاً من حزنه فطاردني، جلست فجلس بجانبي، نهضت فنهض معي، وكأنه يريد أن يبوح لي بشيء ما يخالجه. نظرت الى عينيه فإذا بهما حزينتان فتجمدت نظرتي في أعماقهما، ودار حوار صامت بيننا بدأه بقوله:

الجمل: من ضمير بالحزن يؤنبني على مكارم فقدتها، أحيا ذليلاً كالانسان في سجون الأوطان محاصراً بأوهام الذل التي لبستها ثوباً أنيقاً في زمن الرداءة وبها أتفاخر. أصبحنا طبقات غير متكافئة في مجتمع يتطلع إلى أمجاد المستقبل بقيود ثقيلة الأوزان بالتخلف معنونة كما تفككت روابطنا، لم نعد نسمع إلا عن الموت والأشباح والقمع وجهاز الأمن وعشرات الأمثال المرعبة في زمن الحضارة والتمدن، وفي دنيا ليس لنا فيها سوى ما قل من الحقوق والأماني وبقية أحلام مزعجة. أحلام طفل أن يرى المساواة على أنقاض الظلم منتشرة، وروح العدالة على الأطلال مرفرفة. ما غاب بدر النخيل في ليال مظلمة إلا وأشرقت شمس الصباح على هضاب شاسعة.

أنا: حسبتك من أهل القصور مولداً وفي ليالي الشتاء تحت الحرير مختبئاً، حسبتك فوق الغيوم طائراً وبين الحدائق مسترخياً. لا تلمني إذا أخطأت بحقك. لقد خُدعت بحضارة زائفة

قشورها من نفط، في عالم الفحشاء لا يصبح إلا الخطأ. كيف لي بعلم الغيب معرفة؟

الجمل: نحن معشر الإبل مثلكم يا بني آدم نتطلع الى الماضي لنخفي فشل الحاضر، منا من أُجبر فهام في البراري القاحلة، ومنا من عاش في نعمة لا يستحقها. كنت محط أنظار العالم في ذلك اليوم المشهود من حياتي عندما اشتركت في سباق السنة الماضية، ولكن أحداً لم ينتبه لحالي ويقدر مشاعري وكانت كل همومهم أن أفوز بالمركز الأول، وما إن وصلت الى خط النهاية حتى شعرت بألم شديد يمزق مفاصلي. إذ رأيت أبهة الإجلال والاحترام تنصب على شقيقي الأصغر فلا تخدعك الجواهر والجوائز القيمة والمأكولات الشهية والعسل في براميل بالذهب مطلية، فكلها ستزول بعد تطبيق خطة التقشف الاقتصادي وانخفاض أسعار بترول الأوبيك.

أنا: يا جمل اصفح عني إذا أخطأت بحقك، فبينما شقيقك بالجاه يعبث، هناك مدن وقرى في عالمي منسية، لا تلمني يا جمل إذ أني على الأنعام حسدتك بينما في وطني ناس تنام جائعة.

الجمل: ما أصابك قد أصابني وشقائي من توافه الأمور استفحل وامتلك قدرتي وأصبح كابوساً في ربيع العمر يخنقني، حياتي في الضياع ضاعت وعلى شواطىء البحار تحطمت، انتزع وطني مني وتم تجنيس المئات فرفضت وأرفض ثم أرفض، ولكن من يسمع صوتاً مبحوحاً في قاع البحار؟ وطني وردة كل الأصابع تقطفها إلا أصابع الفلاح الذي زرعها، وطني عروس بها

أتغنى وأتغنى، فسقطت العروس وانتحر العريس.

أنا:::: قلت مبتسماً والدمع يلاعب مقلتي لإخفاء ما تكنه مشاعر الود تجاه صديق لديه نعم المزايا، فنسيت مصاب الدنيا لنتقاسم أحلام المستقبل من خلال رثاء الحاضر ونعي الماضي، فسألته اذا كان الود يربطنا لماذا تهاجموننا على الشوارع العامة لنموت ضحايا أبرياء؟!

الجمل: بكل أسف لا تفهمون مشاعر المنبوذين منا، فكما الحال بالنسبة لكم هو أيضا بالنسبة لنا، ولكننا نختلف عنكم من ناحية التصميم وقوة الارادة والعناد، فالمقهورون والمنبوذون والمضطهدون منكم لا يحركون ساكناً ويقنعون بالحضيض من دون القمم ويكتفون بالقليل من سائر الأشياء. أما نحن فقد قررنا وصممنا على ألا نتهاون حتى نحقق وننال جميع مطالبنا الوطنية والاجتماعية وتعم المساواة بيننا، فنحن لا نهاجمكم حباً في الموت ولكننا نقوم بعمليات انتحارية جماعية احتجاجاً على المعاملات السيئة التي نلقاها، فمن الواجب والإنصاف أن ننال نحن المواطنين حقوقنا كاملة وأن نشارك في حكم أنفسنا.

نحن نأسف على ما نسببه لكم من حزن وأسى وتعاسة في قتل بريء غالٍ لأننا نريد أن نلفت انتباه المسؤولين ولكننا فشلنا في هذا المضمار فرفعنا شعار:

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وهذا ما لا تطبقونه أنتم في حياتكم ومجتمعاتكم البشرية ولا

تعرفون إلا التقاعس الذي جعل منكم آلات متحركة. سننتحر وحين يبزغ الفجر سننتصر على أشلاء القهر........ وسننبت زهراً حين يهطل المطر....... ولكن من يفهم؟

أنا: ما زلت أنظر الى أعماق عينيه عجباً لأفكار هذا الجمل الذي ظننته قاتلاً بحكم المعرفة، ولكن من دون إرادتي وجدت نفسي أردد قوله: «ولكن من يفهم».

****

اغتيال الغضنفر

اجتمعت فصائل القطيع ذات يوم لمناقشة برنامج العمل المعيشي والسياسي في الخطة الخمسية، ورسم خطة البناء والتعمير. تداخلت الأصوات وتشابكت الألسنة وارتفع الصراخ وتطايرت الطاولات والكراسي، فانفض الاجتماع.

بعد اجتماعات جانبية مطولة حول طاولة مستديرة ومداولات مستمرة وولائم متكررة، قرروا أن يكون الاجتماع التالي في اليوم الثاني لمناقشة بنود المسودة التي سبق وأن اتفقوا على العناوين العريضة فيها واختلفوا بخصوص التفاصيل الصغيرة حسب ما جاء في البيان الختامي.

الجدول المقرر للجلسة القادمة هو انتخاب رئيس جديد بغض النظر عن مذهبه وآرائه السياسية وانتمائه الحزبي. بعد الاقتراع الأول لم تفز أي من الوجوه البارزة في المجتمع مما جعل المؤتمرين يملّون سماع الخطابات الانشائية ويقررون الانسحاب الوقائي خوفاً من خسارة مرشحهم المفضل. لولا تدارك الوضع المتفجر المخيم على جو الاجتماعات لسالت الدماء وتساقط الشهداء نتيجة سياسة الخطوة خطوة.

في آخر القاعة ارتفعت أصوات هائجة محتجة تطالب بانتخاب وجه جديد ووضعه على الساحة الوطنية لتتمكن الطبقات العاملة من العيش بسلام في سهول خضراء بعد الجفاف وانخفاض أسعار الصادرات.

طبقة صغيرة من طبقات المجتمع المتعددة اعترضت على هذا الاقتراح وتقدمت باحتجاج شديد اللهجة للأمانة العامة تطالب فيه بقمع حرية التعبير وإبداء الرأي، وذلك لعدم استيعاب القطيع للديمقراطية بمعناها الصحيح كما قالت. بعد أن أوشك الاجتماع على الفشل الذريع من دون التوصل الى نتيجة ترضي جميع الأطراف المعنية، وبناء على اقتراح مقدم من الأمانة العامة قام «غضنفر» بانقلاب ناجح نسف به المفاهيم السابقة.

فليتقدم غضنفر: بعد تلفته يمنة ويسرة خوفاً من الاغتيال وقف على المنصة الرئيسية التي أعدت خصيصاً لمثل هذه المناسبات، وبادر بصوته الأجش يخاطب الجماهير التي تم تجميعها من القرى النائية والأرياف قائلاً:

«إنها فرصة عمري السعيدة أن أكون لكم زعيماً، فلم أحلم قط في حياتي أن أصبح سيدكم بعد حياة طويلة ذليلة شهدت أنواع العبودية والاهمال والابتزاز البشري والانحراف والأنانية والانجراف وراء المنافع الشخصية.

يا شعبنا الأبي في كل مكان، أيها الشعب المضطهد في مختلف الأماكن والاسطبلات، يسعدني بمساعدة قوات الأمن أن نطهر المجتمع من الكلاب الضالة التي أثقلت كاهل الميزانية العامة، والتي استنزفت الطاقات الانتاجية لمعظم شبابنا الثوري. شخصياً أطالبكم بمطاردة فلول النظام السابق وملاحقة أعوانه من محتلي المرافق الحيوية في البلاد، والذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية نشر مبادىء التعليم العالي في صفوف الشبيبة، كذلك

برنامج محو الأمية للكبار.

في هذه الليلة المجيدة من ليالي عمري التاريخية أطالب الثعلب المحتال باحترام القوانين والأصول والعادات والتقاليد والتقيد بالاتفاقيات المبرمة مع الدول الصديقة والامتناع عن مطاردة الدجاج. إننا سنناضل وسنكافح وسنجاهد حتى آخر قطرة دم في عروقكم يا شعبنا الكريم، اننا نعاهد أنفسنا با مواطنينا الكرام على استرجاع جميع أراضينا المغتصبة وإعادة الحق الشرعي لأصحابه بعد هروبه منهم، ومواصلة النضال، ولن يهنأ لنا بال إلا بعد تحرير السلفادور والأندلس وجبال هندوراس، وتقوية التيار الكهربائي وبناء السدود في كل من كينيا وزامبيا وموزمبيق.

من ضمن البرامج المطروحة والتي سبق وأن اتخذنا قراراً بشأنها هي تقوية الأسس الديمقراطية في البلاد وانتخاب جميع أعضاء المجالس التشريعية. ولتوطيد العلاقة بين المجالس التشريعية قد تم بعد موافقتنا طبعاً تعيين زوج أختي رئيساً عاماً لها مع احتفاظه برئاسة مؤسساته وشركاته الخاصة، كذلك تعيين أختي سكرتيرة خاصة له لمراقبة حركاته بين النساء.

أيها الأخوة والأخوات، إن حاضر أمتنا المجيدة يتطلب منا الصبر والسلوان، فاليوم البحر من ورائكم والاعداء من أمامكم، فأين المفر، أين المفر من....... وقبل إنهاء جملته الاخيرة سمع صوتاً عالياً وحيداً في الحشد يصرخ، إذا كان البحر من ورائنا والأعداء من أمامنا فنحن يا سيدي عما قريب سنرحل عن طريق الجو.

ألقت شرطة الشغب القبض على صاحب الصوت الوحيد وأشبعوه ضرباً بالهراوات، وبعد أن قذفوه بقنابل مسيلة الدموع هرولوا به الى أقرب مركز تعذيب.

أكمل غضنفر خطابه الرسمي، بعد التدخل اللا أخلاقي كما وصفه: سنضرب بيد من حديد وأخرى من فولاذ على المعارضة الداخلية التي لا تخاف ولا تتورع عن مهاجمتنا، ولن نسمح أبداً بانتقادنا أو انتقاد تصرفات أطفالنا، لأن أطفالنا أكبادنا على الأرض تمشي.

يا جماعة، الهدوء من فضلكم، ولا حاجة بي لتذكيركم إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب، بل أضيف إنه الآن من زمرد. فجميع تحركاتنا وأقوالنا مراقبة من الجيران والأصدقاء، ولا يجوز من الناحية الأخلاقية والأدبية وحتى من ناحية الاحسان والمعروف أن نخيب ظن من يثق بنا. ألا ترون أن أوضاعنا أصبحت حساسة للغاية ومرتبطة بالمباحث والمخابرات الدولية، وأن كل كلمة أقولها ستسجل في ملفات الكابيتول. «خلاص» افهموا، عودوا الى بيوتكم.

ولكن على كل، وفي النهاية أشكركم جميعاً نيابة عن نفسي ومكارم أخلاقي، وعن زوجتي التي لم تتمكن من حضور الاجتماع لتواجدها حالياً في مهمة رسمية خارج البلاد. عشتم جميعاً ودمتم سنداً وذخراً لنا ولكل أحفادنا من بعدنا. هذا للعلم وشكراً».

في الساعة المحددة من اليوم المحدد صعد غضنفر الى

المنصة الرئيسية في ذكرى توليه مقاليد العرش، وقد نسي أن يلتفت يمنة ويسرة. بعد قليل أعلنت وكالات الأنباء وأجهزة الاعلام نبأ اغتيال غضنفر وإعلان الحداد وتنكيس الأعلام، وانتخاب نائبه قائداً للبلاد بعد أن تعهد باتباع سياسة غضنفر.

****

العقل

* المعدة تسأل العقل: ماذا حل بي؟ بالأمس أضناني العطش وأهلكني الجوع، وعصافيري بكت ظهراً وهي تسألني أماه أين الحفلات التي الى موائدها تسابقنا؟ أين الصحون التي في سمائها طرنا؟ خفقنا بأجنحتنا نتنقل الى أطيب المأكولات حتى إذا تعبنا استرحنا من عناء الاكل، ثم أكملنا العمل لا نشعر بالملل والضجر إلا والصحون خالية. فاذا بالفجر ينبثق متسرباً من بين دسائس الظلام، وإذا بالليل يتبعثر في السهول وعلى قمم الهضاب هرباً من أنغام البلابل، عندئذ نخلد للراحة استعداداً لجولات أخرى فيها الذبائح والولائم والدجاج المحشو، فيها الأرز والسمك واللحم وأنواع الفواكه والخضروات. ما أحلى أيام العمر وصوت الطرب ورنة الخلخال.

بالأمس كادت قواي تنهار، لم أذق قطرة ماء أو كسرة خبز لأسد بها جوعي.

* العقل: التفكير من اختصاصي، فأنا الذي أخطط وأنسق ولا أستشير رفاقي من حولي أو بقية الأعضاء المحترمين. لقد خلقت كما أظن سلطاناً متكبراً قابلاً للنمو والتطور وغالباً ما أرفض الحوار، فأنا من يقرر نهج حياتكم وأسلوب معيشتكم وأوضاعكم من دون استثناء، أنا معكم حتى في المضاجع، منذ طفولتي كنت متغطرساً وأوامري تنفذ من دون جدال، اليوم يا معدة إنك تجادلينني وتستمرين في إصرارِك لمعرفة الحقيقة، وهذه التصرفات الطائشة ليست من عاداتك الحميدة المعروفة. هل هناك قوى خارجية تعمل من

خلالك؟ أنا لا أفهم، هل قررت إثارة المتاعب واستنفار أعصابي؟ لقد خلقت لتكوني بجواري، لهضم كل الحقائق والواردات، فلا أسمح أبداً لنفسي باعطائك مجالاً للحديث ولن أكون في مستواك.

* المعدة: ما أصعب الحياة وما أشح لقمة العيش فيها، فبينما معدة تنعم بوافر الرخاء وتكتسي بأثواب الحرير، لا تجد الأخرى ما تأكل وتنام ليلها على أمل وتحلم بصباح يوم جديد تبحث فيه عن ثوب قديم لتخفي أسرار الشعوب. ما أشد قسوتك يا ظالم فلقد أمرت بعزلي وتصفيتي بعدما كنت لك عوناً لتكملة مسيرة الحياة. جعلتموني هدفاً تتسابقون إليه لصب وابتلاع كل أنواع الحلال والحرام فيه. أشكو أمري بأني ضحية بريئة من كل ما ترتكبون باسمي ومن كل المؤامرات التي تحاك ضدي. في ليالي الشتاء الباردة أخرجتني من فراش الدفء والحنان لنجري تحت أمطار منهمرة ورياح مزمجرة وغيوم غاضبة. ما ألبث أن أرى البرق يلمع حتى أسمع الرعد يهدر، فنتسابق لأقرب ملجأ. مسكين ذلك القلب، فأنا أشفق وأتأثر بخفقاته ومن أجله أبكي. مهلاً يا عقل أنت لست الوحيد للجسم مالكاً ووليأ أو حاكماً، وبقية الأعضاء الكرام تحتج عليك.

* العقل: من أفكاري الطارئة التي تهز الجبال الشاهقة، ومن مفاجآتي المتزايدة في سكون الليل حين الكواكب تبيت متعانقة، أشعر بالرعشة والخجل وأنا لي السلطان والرعية تتبعني. في اعتقادي أنكم كنتم تنعمون بالرخاء والرفاهية، وكنت أجهل حقيقة تطورات حياتي المتشعبة، كشاه ايران السابق مثلاً، ولم أر نفسي

إلا سجين عواطفي ومشاعري، ولم أكن أدري حتى ما كان يكنه لي مستشاري المخلص المدعو السيد «القلب». لم أدر أني كنت سجيناً لبنات أفكاري حتى أدركت اليوم أمري، وعندما عرفت أن بقية الأعضاء تآمرت عليّ وعينتك متحدثاً رسمياً باسمها فقدت زمام الأمور والمبادرة، ولا يسعني في هذه المناسبة إلا أن أقدم اعتذاري الشديد للسيدة الجليلة، وأقول بكل صدق وإخلاص إن ذلك الشهر الذي نطلق عليه اسم «الاستاذ رمضان» هو سبب الثورة الهائجة القائمة ضدي والتي تستهدف الاطاحة بحكمي.

* المعدة: آه يا عقل من غرابة أطوارك، فلم ترحم نفسك حين كانت الأوضاع مستقرة، لقد خدعت نفسك غدراً بالجاه والأحاديث التي لا تناسب إلا المعجبين والانتهازيين من صغار الجبابرة كالأمعاء الغليظة وما شابه ذلك من مرتزقة. أناشدك عن تلك الكتل الغذائية التي كانت تتساقط في جوفي لتهز حواجز جدراني، أنا اليوم جوفاء فارغة، وسائل الاتصال بالعالم الخارجي مقطوعة وجميع مصادر الإرسال متوقفة، فلذا نهيب بكل الأصدقاء مد يد العون والمساعدة قبل أن نسقط وتفتك بنا المجاعة والجفاف وتنتشر بيننا مختلف الأمراض والأوبئة. لا يسعني إلا المناشدة لرص الصفوف وشد الأحزمة.

* العقل: ما زلت عند رأيي وأكرر اتهاماتي السابقة بأن هناك أصابع خفية تعبث بالجبهة الداخلية لإثارة الفتن الطائفية، ولكننا سنضرب بيد من حديد كل من تسول له نفسه بالعبث بمقومات وأملاك الشعوب المضطهدة والتجمعات المستضعفة. الانسان في

الحياة يكدح من أجل كسب لقمته اليومية بصعوبة فائقة، والدنيا ما عادت مثلما كانت مجرد أفراح فيها نلهو ومجالس فيها نتشاور. أمركم ما عاد لكم فهو يهمني أكثر منكم وإني أطالبكم بالانضباط. يا جماعة إني لا أفشي سراً حين أقول بأن الركود الاقتصادي الذي يمر علينا قد ترك أثره السيىء في نفوسنا جميعاً. وأخيراً يسعدني أن أزف لكم بشرى سارة بأن السيد رمضان الذي أثار المتاعب قد قرر الرحيل.

* المعدة: العلة لا تكمن إلا في أساليبك المتعجرفة، فقد جاءنا زائر لم تحسن ضيافته، مقابلتك له بجحود وابتسامات باردة وكلمات قاسية وتصرفات ذميمة أثارت مشاعرنا، واحتجاجنا ينصب على معاملتك التي جعلتنا نفقد إدراكنا الحسي. الأستاذ رمضان لم يكن السبب في ثورتنا، ولكن تصرفاتك السيئة المتكررة هي إحدى الأسباب الرئيسية التي نطالب بإقالتها لنتمكن من الجلوس معك على طاولة المفاوضات.

إننا نطالب أيضا المعاملة بالمثل، وطلبنا غير قابل للمساومة، لأن كل واحد منا في هذا المجتمع يقوم بواجباته يعمل ويكدح من دون تذمر أو إحراج.

* العقل: بعد الدراسة والتمحيص رأيت من الحكمة إعلان حالة الطوارىء، فقد طلبت للتو من مساعدنا الأول «الإذن» نقل الأخبار إلينا بدقة حتى أكون ملماً بالأحداث المتوالية، والتنصت على كل ما يتحرك في الداخل، كذلك مراقبة كل التحركات المشبوهة وغير المشبوهة والرسائل والتليفونات وهلمّ جرا،

وتقديم التقارير مفصلة لأتمكن من البت فيها مباشرة من دون مراجعة الهيئة الاستشارية التي ورطتنا في هذه المصيبة الداخلية، كما طلبت أيضا من وزير إعلامنا معالي «اللسان» إطلاق التصريحات على مختلف القنوات يكذب فيها كل البلاغات الواردة من جبهة الأعداء التي تحاول إثارة البلبلة في صفوفنا. هذا وإني أطمئن الأخوة الكرام والأصدقاء وكل من يقف بجانبنا في هذه الظروف الراهنة والليالي الحالكة التي تمر بها أمتنا، بأني قد أرسلت برقية مستعجلة أطلب فيها معونات ومساعدات عسكرية وهي الآن في طريقها إلينا، وستصل بعد غروب الشمس مباشرة لإخماد الحركة التمردية التي تشهدها المنطقة.

* المعدة: أساليب القمع لن تجديك نفعاً والشعب أبداً لن يقهر. نناشدكم بضبط النفس وتهدئة الخواطر وفتح الممرات والخزائن المالية وإعادة وتقوية خطوط التموين وتوزيع المداخيل بالتساوي. نحن لا نطالب إلا بحقوقنا المغتصبة، وإعادة الحق لأصحابه مطلب شرعي وندافع عنه بكل مانملك من وسائل إرادية وتصميم. وفي هذه المناسبة التاريخية لا يسعنا نحن من في الأعماق والطبقات السفلى إلا أن نردد «إذا الشعب يوماً أراد الحياة».

* العقل: استنفدت جميع وسائل الخداع والحيل وحركات الشطارة والفهلوة. وأصحابي هجروني بعدما تفاقمت الأزمة وتداعت أركان مملكتي، وأراني لن أتوانى عن إعدام كل من يقوم بتوزيع منشورات. أعواني نبذوني وسط المارة الذين لم أر مثل

فقرهم في حياتي، وعند سؤالي عن هويتهم قالوا «نحن أفراد شعبك من الكادحين». فعلاً كنت معزولاً عن أفراد شعبي وهمومهم، وكنت أعتقد بأن الأوضاع المعيشية في تقدم مستمر.

الآن لن تفيدني إلا غطرستي، إني سأتغطرس حتى أجعلهم يخضعون لي ويحترمونني، وسأجعلهم يعتقدون بأني ما زلت ماسكا زمام الأمور والمقدرة، لأنهم لا يعرفون بأن السلطة الفعلية حاليا بين أيدي المخابرات المركزية. لا أريد أن أتنازل لأني لو تنازلت سأنتهي، ومن يعرف ربما سيفترسونني أو يعدمونني كما جرت العادة.

* المعدة: ولكن يا ترى الى متى ستبقى هكذا؟

****

اليربوع

جلس «يربوع» القرفصاء وسط ساحة السجن يتأمل المساجين من حوله وهم يقفون في مجموعات متفرقة، وكل واحد منهم يباهي بجرائمه ويتفاخر بها إلا «يربوع» فقد لزم الصمت ورفض أن يتكلم، لأن الكلام حسب معرفته من المحظورات. في النهاية رضخ تحت إصرار بقية المساجين الذين طالبوه بمعرفة سبب وجوده بينهم، لأن شكله لا يدل على انتمائه لعالم الجريمة. أخبرهم «يربوع» بأن جريمته تكمن في أنه كتب رسالة الى مقام الحاكم يتهمه فيها باللامبالاة تجاه قضايا شعبه وسرقة أموالهم وتقصيره الشنيع في تحقيق متطلباتهم المتزايدة، وأخبره أيضاً بأنه لا همّ له سوى متابعة البرامج التلفزيونية المتعلقة بالصور المتحركة.

واحد من المندسين في صفوف المساجين نقل تفاصيل هذه الواقعة وأضاف بعض الأشياء من عنده الى علم حاكم السجن، الذي بدوره أمر جلاوزته بمراقبة خواطر هذا اليربوع اللئيم الذي لا يقدر الاحسان والمعروف والمروءة ولا يعترف بفضائل الدولة عليه وعلى أمثاله. عليه مراجعة هيئة السجن قبل أن تطرأ على باله أية خاطرة، لأنها إذا طرأت من دون إذن مسبق فلربما تسبب له بعض الاحراج. هذا وقد أعذر من أنذر.

مرت فترة طويلة بعد المصادرة وقبل أن يبدأ ذهنه بالعمل مرة أخرى، ولكن فجأة وفي ليلة ما من دون أن يدري طرأت على باله

خاطرة عابرة اعتقد بأن أحداً لم يعرف عنها شيئاً، لأنه كان وحيداً في زنزانته حينئذ. لكن ما إن انبثق الفجر حتى انفتح باب زنزانته الحديدي ولم يستبشر خيراً، فطلب منه الزائر كتابة خاطرة ليلة أمس على ورقة بيضاء أطرافها سوداء، وعندما استفسر من غرابة هذه الأطوار أجابه الزائر وكأنه لا يعرف من أين يبدأ... بأن.... وكأن.... ولكن من دون محاكمة قررنا إدانتك وشنق «خاطرتك» في ساحة السجن لتكون قدوة للآخرين. أنذره قائلاً: إياك والخواطر مرة ثانية وإلا ستشهد دنيا العجائب، فناوله الورقة والقلم وبدا «يربوع» متردداً في الكتابة يحاول تجميع أفكاره لكتابة خاطرة ليلة أمس، وهو يعرف أنه بعد أن ينتهي من كتابتها مباشرة ستشنق أمام عينيه في ساحة السجن. كتب يقول:

عن ذلك الذي ينطق ولا يتألم، ينعم في ملذاته وعلى أوقات أنسه يتقلب، يسهر بين حسناء ومطرب. وعن ذلك الذي في صمته يتألم يبحث عن السعادة بين جرح وخندق. جرح دنيا في القلب يدمي، وجرح نفس ينزف في دجى الآلام حزناً، يبحث عن سراب مأوى بين التوسل والخضوع سراً، فلو تصرخ الصخور تبكي، تزمجر، تنعى الانسان من ظلم على الأرض يسيطر. وعن فقير أحصى النجوم قهراً يبحث عن الأمل بين التعاسة حيناً وعلى ضوء الشموع أحياناً. يحلم بسحابة تنتشله من براثن الفقر. يسرح في أحلامه، يطير فوق الغيوم، يهبط بين أزهار الحدائق وردهات القصور، يدخل البساتين والحقول.

البؤس تقمص الفؤاد من واقع نجادل فيه الأيام بمكرها

وخبثها وطيبتها، نناقض فيه اللحظات بحزنها وفرحها، نعاتب فيه الهمسات. نخاطب الربيع بأزهاره، بمروجه الخضراء، بعصافيره، بتغاريد طيوره. نتوسل أشجار الليمون والنخيل بثمارها والجداول بينها. بهجة الطبيعة، بلسم الحياة، مصدر السعادة والحنان، وحي القلوب الدافئة، يا دفء الليالي الباردة ـ نحن، من نحن؟ في بحر نسافر على آمال المستقبل، في سفينة تتقاذفها أمواج الغضب، تكاد تتحطم على صخور الدجل، نحن لم ننج من أشرار البشرية.

أناغي النجمة المتلألئة في السماء، أبعث لها شجوني وأسرار بؤسي، أسألها بصمت، نتخاطب بلغة القلوب، بلهجة المحبين، بحرارة الدموع من شدة الأشواق. نتجادل في شؤون الأوضاع، عن لقمة عيش، عن كسرة خبز، عن أجر شهر. الله في الكون لم يحدد، لا حدود للكون، فكيف نحن نحدد؟ أغار حين أرى العصفور على الأغصان ينشد وأنا الذي بالحدود مقيد. اهتزت النجمة وابتسمت ثم تحدثت عن الافراح، لم تعلم ان الاوجاع في صدري وتلك الأفراح التي يروى عنها في الصحف خيال من نسج الواقع. لا تسأليني، فوا أسفي القلب ينزف. قلت: وطني حبيبي هل أصابك ضرر، وطني حبيبي هل أنت لعبة بيد القدر؟ أنت أنغام تعزف على الوتر، بل أنت حبي وفؤادي والبصر.

انهارت النجمة وبكت، فأكملت، في وطني وردة جفت وزالت من الوجدان ولكن شذاها ظل ذكرى في قلبي الولهان، تلك الزهور ذبلت جميعاً في وادي النسيان.... أيا نجم أما زلت هناك أم قد

مللت أحزاني؟ وبعد صمت أجابت: تأملت الكون فرأيت عجباً ومآسي تحكم العرب، ورأيت قلوباً من العذاب ذائبة ونفوساً من الفقر تهذي. رأيت يتيماً من الجوع يبكي ودموعاً على الخدود تجري. ما عاد الطفل يلعب عند المروج وبين الشجر.

ذبلت الأشجار والأوراق تساقطت، جاء الخريف بغضبه، بحزنه، بكآبته، وتجهمت السماء وتساقط دمعي مع الأوراق حين تساقطت، اهتز جذعي حين النخيل تمايلت من حزن ألم بها، فبكيت على نخلة أبت أن تدمع، فانهار عودي ووقفت هي شامخة تشهد على مصائب الزمان.

أتحدث عن الأهوال في طيات الأحداث تحت جنح الظلام. لو تنطق الأوطان لصرخت: «ارحموني يرحمكم من في السماء». أتحدث عن المستقبل بالرجاء والرخاء والأمل، عن فراشة ترقص وعصفور يغني. بالزهور المتفتحة والبلابل المغردة، خرير الماء ونقيق الضفادع تذكرني بأحزاني وأحشائي ممزقة كوطن عصفت به كوارث الاعصار. تذكرني بماض هو حاضري وبمستقبل هو الماضي بتعاسته.

البدر يشرق على المحرومين، يعانق الروابي يسامر السهول، يغازل الأنهار يبتسم للتلال والبحور، يجادل الأحزان ويثير عواطف المشتاق. دمعتي انهمرت، رأيت وطناً على وجه القمر يئن من جراح، يشكو من أثقال، لكنه يبتسم، يسأل النجوم ويخاطب الكواكب. تردد الصدى، تناقله الأثير عبر المحيط والفضاء، أقول وطني يقول الفقير في هلاك، في هموم تشابكت على أفئدة الحق

في دهاليز الظلم منقوشة بطلاء الذهب، بحجارة الماس. بين عشاق الفجور ونيام الكهوف تأتي آهات الزمان فيها أسرار اللصوص، فيها أصوات الإبل وصهيل الخيول. فيها أنواع الحروب وجياع الشعوب، فيها أطفال الوطن.

الظالم والمظلوم، لقد ساد الليل وانجلى النهار وتفتحت أزاهير النفاق، فأصبح الصبار قرنفلاً وأقحواناً، والغراب عندليباً يشدو والثعلب مارداً جباراً وعواء الذئب ألحاناً.

من أهوال الذل والعبودية صار البؤساء هم الأغلبية. بحور الظلم هاجت فابتلعتهم وزوابع الفساد هبت فاقتلعتهم، فرأيت أناساً من الجهالة على الجهالة يضحكون، نعق الغراب فرقصت الشواهين، واهتزت اليمامة وطرب العندليب.

أواه يا قدس من قوم على الشدائد صابرين، وأواه يا وطن من فؤادٍ في غرامك هو من الساهرين، وأواه يا وطن على نفسي من الذل اللعين. ذاب قلب الحق كشمعة تحترق وتوقفت نبضات قلب الوليد، فمرح القاتل وسجن القتيل. دنياي ما أحلاك وما أدفأك، ولكنهم جعلوكِ زمهريراً وأساطير، وجعلوكِ حجراً ثقيلاً.. دنياي أصبحت مسرحاً فيه الممثلون وفيه التماثيل، فيه العقارب والأفاعي.. دنياي فيكِ الفقير يولد فقيراً ويموت فقيراً.

****

الدبور والزهرة

بينما الدبور يحلق فوق الزهرة بصوته المخيف بادرته قائلة:

الزهرة: أحب الهواء الطلق ونزهة العصر وماء الخليج، كما أحب التجوال بأفكاري وأحلق بعيداً في ربوع الحياة أغني نغمات الربيع وألحان الهوى، كذلك أعشق شروق الشمس وأتمايل مع نفحات النسيم.

أهتز حزناً حين يخيم الظلام ويفرش سواده على ملامح وجهي الجميل. حياتي بين الشروق والمغيب، ففي طفولتي كنت بريئة أتنقل من عيد الى عيد بأثواب الحسن التي نقشت على أطرافها خارطة وطن فقدته مع هبوب الريح. في صمت أخاطب نفسي، أتجرع مصيبة عندما تداركتها قالوا عني هذا أنبل ما يكون، فتمنيت فرحاً دائماً من أعماق قلبي يدغدغ أضلعي، ينساب بعيداً عن أجواء الظنون. أريد أن أكون حقيقة واقعة ملموسة وأن أكون حرة أسبح في كون واسع، لكن ضاعت الحقيقة ولم يتم السرور، لأنهم حينما قالوا هذا أنبل ما يكون لم يكن إلا وسادة الموت من جراء عادات السنين.

لا أرغب أن أذبل كما ذبلت أمي من قبلي وزالت من الوجود، إني سأكون رافعة الرأس شامخة، وهكذا سأكون لأن قلبي يخفق في وادي الحنين وعطري ينتشر على الروابي وفي كل السهول. أعلم جيداً أن البساتين التي حولي فيها زهرات يانعة ستتفتح عما قريب، وسينتشر شذاها ليغطي كل طفل رضيع. حياتي لم تخلق

أبداً مزخرفة لزينة المنازل والقصور ولن تضيع هباء لكل من يمر في الطريق.

الدبور: ظننت نفسي في الدنيا سيداً في معظم الأعراف، لأن هكذا علمني أبي وهذا ما أكدته لي والدتي في مناسبات عديدة. أجدادي كانوا يقطفون الورد غضاً والزهور اليافعات، لا يخافون حبيباً غالياً أو صديقاً وفياً أو عدواً من بلادي.

أنا ما عدت أدري، فاتركي عنكِ هذه الأشياء والمعاني الفلسفية، فجمال وجهك الأخاذ قد سلب روحي وعقلي. أعشقكِ والدمع في مقلتي يداعب حبات الندى، أعشقكِ والفجر يبتسم بين آهات الدجى. أترين الحال الى أين وصلت؟ يا من تمناه فؤادي، كم تمنيتكِ زهرة بين الخمائل أقبل ثغراً منها تجلى وخجل. بات قلبي يرقص على أشواق النوى وأبات أعاتب القلب كأني وطعن الزمان ما كفى. يتوارى الحزن في خاطري ويظل في الآفاق الصدى، هكذا أحب هواكِ وأحب الشذا.

الزهرة: ما هذا يا تافه؟ أنا أخاطبك عن حقوق في البلاد ضاعت وعن قضايا على صخور الأمواج تحطمت، وأنت تقبع في معاقل الغزل منطوياً على نفسك تنشد ملذات الغرام وكأني مجرد زهرة تمتص منها الرحيق. ما تمنيت أن أسمع قولاً كهذا، ولا أرى وجهي يكتئب من ثقل حديثك. أهكذا الحياة عليّ قاسية؟ وأنا يا وطني من أنا؟ بكيت والحزن في فؤادي لأني ما عدت أرى إلا دموع اليأس والضجر. اخترت النجم صديقاً في وحدتي أخاطبه كأننا اثنان نتشارك الهم والصمت يجمعنا. آن لك أن تخجل من نفسك،

فالمجتمع الذي نتقاسمه أنا وأنت يتطلب منا نهجاً جديداً، لأنه ليس طبيعياً أن يتعب والدي الفلاح منذ ولادتي ويشقى من أجلي، وأقضي نصف عمري بين الكتب حتى إذا أصبحت في سن النضوج زهرة متفتحة تبهر أعين الناظرين، وإذا ما فاحت رائحتي الزكية بدأت أنت وأمثالك تحلقون حولي وتحومون.

الدبور: أقول وضميري يؤنبني، إن ما بناه الدهر لن تمسحه الأيام في ليلة، فعقولنا تحجرت والحكومة «دحرجتها» كما تعلمين، ولن نصل أبداً الى الحقيقة التي نعرف أنفسنا من خلالها إلا بالتعامل مع قضايا الفكر والانسان من موقع الصدق. وبعكس هذا نعيش في أوهام من كثرة ممارستنا لها ما عدنا نميزها عن الحقيقة التي إذا صادفناها اعتبرناها وهماً أيضا. آنستي الجميلة، لعلك لا تذكرين لأنك كنت صغيرة وقتها يوم كان جدي رحمه الله متزوجاً من بنت عمك لا يفارقها أبداً، ولكني أذكر جيداً كل التفاصيل الصغيرة وكيف جعل حياتها جحيما بسبب تصرفاته العفوية المؤلمة. كنت دائماً بصحبته وأسير خلفه، مسكينة هي، كانت كثيرة الشكوى من رائحة فمه وثقل دمه وخشونة حركاته. هكذا كانت الحياة في تلك الأيام العابرة ولم يكن لدينا في البيت معجون أسنان أو فرشاة، ولكنني أمتلك كل مواصفات إنسان المستقبل. تمهلي ولا تخافي مني، أرجوكِ أتركيني أكمل حديثي لأن فيه الكثير.

الزهرة: ذكرى الخيل والليل والبيداء لن تفيدنا كثيراً ولن تحل مشكلاتنا اليومية بسلبياتها المتزايدة، كما أتمنى أن لا تكون هدفاً

بحد ذاتها. أنا لا أتحدث عن نفسي فقط ولكن بالإنابة عن جميع أخواتي ورفيقاتي من المحيط الهادر الى الخليج الثائر؛ ومن السنابل والياسمين والقرنفل نطالب بصوت ناعم واحد، بعيداً عن التوتر الاقليمي وبخطط مرسومة تنال موافقتنا وتؤهل الطبقات المستضعفة من نيل جميع حقوقها ومعرفة خط سير اتجاهاتها نحو الهدف الوطني المنشود.

الظروف الزمنية التي لا أعرفها تماماً هل تمر علينا وستزول أم أننا نحن اللواتي بها متمسكات، ما أعرفه جيداً أنها لا تسمح لنا بالمشاركة مما يجعلنا نقف مندهشات من تصرفات البعض، يسودنا عدم الرضى عن كل شيء. ذكرياتك وبطولات جدك مع بنت عمي عديمة الجدوى في زمننا هذا، إلا إذا كان المقصود منها معرفة ودراسة الأخطاء الماضية التي ما زلنا نتخبط فيها منذ زمن الاستعمار الأليم. جدك الذي تتفاخر به لم يكن إلا جزءاً من إنسانية كوكبنا الأرضي عرف كيفية استغلال الظروف، بعكس ما أنت عليه الآن، إنك عارٍ من كل الأعذار وتتمادى في مدح نفسك. الحياة أن ننظر الى الأفق البعيد من أجل مزيد من تجاربها التي علمتني ألا أتكل إلا على نفسي وعلى قدراتي الذاتية. لقد كرهت التطلع الى الخلف حتى كدت أتوقف عن النظر الى الأمام خوفاً من السقوط في هاوية المستقبل. آه كم أنا غيورة من زهرة الدوار الشمسي التي تنظر دائماً الى مصدر النور.

الدبور: معانيك الكلاسيكية تجذبني وتمتلك حواسي، وبصراحة أنا معجب بعمق ثقافتك وفصاحة لسانك وأبعاد

مفاهيمكِ واتساع معلوماتكِ، ولكني عندما أخاطبكِ بمشاعر وعواطف قلبي الودود فليس معناه أني لا أستعمل عقلي كمحرك رئيسي لأفكاري الخاصة، وبالذات أنت تعرفين وضعي الاجتماعي جيداً. من منطلق الأفكار الوطنية وانعقاد المؤتمرات السياسية العامة يقولون عني ما زلت طفلاً ولم أبلغ سن الرشد، مع رفضي المستمر لهذه الصفة منذ فترة طويلة إلا أنهم ما زالوا متمسكين برأيهم. أنتِ ما زلتِ تعاتبينني على عدم معرفة كيفية استغلال الظروف، ولكن على كل حال فالعاطفة النبيلة هي التي تحركني وتهز مشاعري حتى أشك أحياناً وأسأل نفسي إذا كنت أفكر بقلبي أم بعقلي.

أنت تطالبين بحقوقك وتنتقدين كثيراً من دون أن تملكي عضلات مفتولة، ومن المؤكد أنك تزدادين مقدرة فكرية تحررية في التعامل مع المستجدات المطروحة على الساحة كلما تنقص صلاحياتي في المجتمع وتتقلص، فماذا في النهاية سأكون؟ هل يرضيك أن أكون أنا الزهرة وأنتِ الدبور؟

الزهرة: تلك الاسطورة التي نشأت وترعرعت في العقول مفادها أن فصائل الزهور ضعيفة ولا تتحكم بزمام أمورها أصبحت هاجساً يراود الكثيرين منكم.

مع تطور الحياة عرفنا أن صافي العسل ما هو إلا خلاصة نقية لتلك الزهور والبراعم المختلفة التي تعطي الحياة رونقها وجمالها. تتجلى الأنانية بأكملها حين تقطفني لمجرد رغبة طارئة نازحة في خاطرك، ما تلبث أن تلقي بي الى مصير مجهول حالما أذبل.

البعض يلاطفني ويداعبني ولكن في هذه الحالة مصيري دائماً ينتهي في مزهرية بإحدى زوايا البيوت.

الدبور: تصورت فيكِ أملي ومستقبلي وشبابي الذي أضعته دون معرفتي الكاملة لمجريات الأمور، توسلت منك العطف والحنان الذي فقدته مع وطن كامل بأهله. لا تلومي فتاكِ في الحياة، فهو جريح بسهم الوعي الثقافي الذي رحل عني دون كلمة وداع، أنا وأنتِ ضمن أفراد ومجموعات تسير في شارع أطلقوا عليه اسم «طريق الرقابة» نعرفه نحن أهل البلاد بشارع «الصمت نحو الهلاك».

الزهرة: أفهم من كلامك، وأرجو أن أكون مخطئة، أن الحد من تصرفاتي الثقافية والاجتماعية والأدبية هي طريقة غير مباشرة لتقييدك انت من حرية التعبير والطيران في عالم الديمقراطية والانتاج. إذا صحت هذه النظرية فهي لا أخلاقية ولا إنسانية باعتباري ضحية دائمة في كل المشاريع التي تتبناها اللجنة الدائمة للمشاريع العامة ذات المواصفات الأثرية.

لا أستطيع المطالبة لأنك، كما ذكرت وقلت، في حاجة الى عضلات، وإن هذه العضلات لا تنمو في وطني إلا بممارسة فنون لعبة كرة القدم، ولكني أستطيع المطالبة بحقوقي المغتصبة عن طريق الأندية الثقافية والشطرنجية وذلك بتطوير خيالي الواسع وتنويع قدراتي الذهنية لأتمكن من استيعاب تطورات الحياة المعاصرة.

أقول هذا وقلبي يقطر دماً، فهذه المحافل الدولية ازدهرت في

البساتين المجاورة، ولكن كما ترى جفت الأرض وقحلت البراري في هذا البستان. لم أبق إلا أنا وأنت، أنا أريد النقاش والحوار الايجابي بعيداً عن التشنج الفكري، وأنت لا همّ لك إلا مغازلتي والتغني بجمالي.

الدبور: ربما يطول الحديث معكِ ويمتد الى ما لا نهاية، فأحاديثك شيقة أيتها الزهرة الرشيقة، ولكني أرجو المعذرة، لأنه لا يمكن أن أقضي عمري محلقاً فوقك من دون فائدة بينما المئات ينتظرن وصولي بقلوب خافقة. بالأمس قبل رجوعي الى منزلي قمت بتوزيع أرقام هواتفي العديدة في الساحات العامة، وهذا هو الوقت الذي أتوقع فيه ردات أفعالهم. كما أخبرتك من قبل في مناسبات عديدة أنتِ مظلومة وأنا مثلكِ ولا نلقي اللوم إلا على الوضع.

الزهرة: وبينما الدبور بدأ يحلق عنها بعيداً، صرخت: ومن هم المسؤولون عن الوضع؟

****

«الكبش»

جلس «كبش» وحيداً في غرفته المظلمة يتأمل الكون والبؤساء والمظلومين في وطنه. سرحت أفكاره بعيداً في الآفاق الواسعة ودخل في غيبوبة لم يستيقظ منها إلا على قشعريرة باردة سرت في عروقه. جدران غرفته وتلك اللوحة الزيتية من حوله تنظر اليه بأسى وشفقة وكأن فيها روح المشاركة... تناول كبش كتاباً و غاص بين أسطره هرباً من واقعه العربي على ضوء شمعة تذوب كما تذوب قلوب الأمهات الفلسطينيات. أخذ يبحث بين طياته عن كلمة حق يحارب بها الباطل ويتسلح بها في عالم الدجل والنفاق. الكلمة التي بحث عنها لم يجدها لأن الكتاب هو واحد من الكتُب التي اختيرت بدقة وعناية لتضليل من هم أمثال كبش وإبعاده عن هموم أمته وجذبه نحو عالم تزينه أعلام الهزيمة والتخلف والتبعية الاميركية.

بعد فترة انطفأت الشمعة كاملة وانطفأت معها أحلام وتفاؤلات كبش، ومنذ ذلك اليوم لا يبتسم كبش إلا وهو يهز رأسه هازئاً بقادته وزعمائه. أصبح كبشاً ناضجاً يعرف تماماً ما يفعل، ولكن لا سبيل للمعرفة بعدما ماتت الشمعة وخيم الظلام.

كبش محبوس في غرفة اختارها دون إرادة. منفرد يعاني وبصحبته كتاب اقتناه لعدم وجود ما هو أفضل منه في الأسواق التي تعج بكميات من المخدرات والمحلات الخلاعية.

قال كبش لكتابه: لم تعجبني قط ولم تمثل رغبتي واشتريتك

لعدم حصولي على صديق أفضل منك في وضعية متمزقة لا تلبي متطلبات الحاضر.

منذ ذلك اليوم أصبح الاثنان متصادقين متميزين في تبادل العواطف وليس الآراء، لأن كبشاً يفهم جيداً بأنه لا علاقة إطلاقاً بين التقنية الثقافية التي يتكلمون عنها وبين واقع الحال والاحتمالات السلبية التي يمكن أن تنعكس على حياة الشعب.

لم يطق كبش ما يدور حوله فشعر بضيق الوجود وكآبة السجن المنزلي واضطراب الأعصاب. فتح النافذة لإنقاذ نفسه من أشباح الهموم وإراحة ذهنه من وساوس التوتر النفسي الذي يتعرض له في حياته اليومية، فإذا به يرى إنساناً ينسل من خيوط الظلام يسحب أرتال الفقر والتعاسة مخلفاً وراءه خطوات ثقيلة على رمال تدل على مدى التخلف الانساني. قال وهو يمسك رأسه بكلتا يديه تعجباً: لا بد أن يكون هذا هو ما يسمى بالمواطن.

لم يتمالك نفسه وبكى كبش من أعماقه حزناً على ما رأى وفضل إغلاق النافذة عن مشاهدة حالات مشابهة وإن تغير المكان. اختار الانفرادية والانزواء خلف الجدران ومصادقة أرذل الكتب على مواجهة الواقع بحقيقته.

كيف يعبر كبش عن واقعه إذا كانت الحقيقة منبوذة بقرار رسمي ويعاقب كل من يصادقها؟

عاد كبش الى زاويته المظلمة كئيباً ينعى يوماً آخر من حياته انقضى من دون أن ينجز عملاً مفيداً أو حتى قراءة في كتاب. جلس القرفصاء في صمت رهيب، هذا ما أريد له وهذا ما يرفضه،

فغاب في تخيلات جديدة.

امرؤ ساهر يحصي الأموال والجواهر والحلل، وامرؤ ساهر للفجر يفكر في الحصول على رزق أطفاله ليوم غد.

وبينما أفكاره تجوب المآسي البشرية، سمع عصفوراً يغرد تنساب ألحانه الى القلوب موسيقى عذبة. ترجم هذه الألحان فوجدها صادقة نقية من كل البلاغات التي تذاع وتكتب وتبث. استمر العصفور يزغرد فرحاً بإشراق يوم جديد فتساقطت دمعات كبش معبرة عن أوضاعه، لأنهم لم ينظروا إليه على أنه أكثر من مجرد كبش.

****

البعوضة

قررت البعوضة بعد تخرجها من جامعة العين ان تنضم للسلك الدبلوماسي.

رعدت الدنيا وغابت الشمس وتجهمت السماء.

اجتمعت مع جدها ومن حولهما بقية أفراد الأسرة الكريمة لتبادل الآراء والمعلومات والاسترشاد بالنصائح الحميدة بخصوص قرارها الخطير بخوض بحور المستقبل والتحليق في آفاق مجهولة المعالم.

نصحها بعدم التورط على أساس أن والدتها من قبل لم تعرف مثل هذه الأسلاك الشائكة وأن أختها الكبرى لزمت البيت بعد طلاقها.

ولكن البعوضة أصرت على موقفها وتمسكت برأيها العنيد حتى تكون قدوة في فتح أبواب جديدة لبنات جنسها اللطيف، لأن هذا السلك ما زال معلقاً في الفضاء احتكاراً على الذكور من الزواحف المتنوعة بعد توتر الأعصاب والشد العضلي والبكاء والاضراب عن الطعام، أشفق عليها جدها فابتسم متوسلاً إليها يراضيها. وبعد الانتهاء من سرد نكتة «بايخة» سمعها في ريعان شبابه، ضحكت البعوضة وتقبلت خواطره العجيبة برحابة صدر وكأن شيئاً لم يكن. وكما هي العادة في العالم العربي في نهاية كل أمر حسب الادعاء، عادت الأمور لمجاريها الطبيعية.

قبل كل شيء بدأت البحث لمعرفة وتحديد موقع السلك الذي

شغف الفؤاد، فنصحوها بالمرور على شؤون الموظفين أولاً للتزود ببعض الأوراق الثبوتية والارشادات الضرورية. وعندما وصلت الى المكان المنشود جلست تشرب الشاي ومن ثم القهوة والعصير تحت رقابة صارمة من أعين مندهشة كأنها لم تر بعوضة في حياتها.

كلما انتهت من شرب فنجان أسرعوا بالثاني، وهكذا وهم مستأنسون من وجودها بينهم حتى انقضى الوقت دون تحقيق مطلبها ومعرفة اتجاه سيرها وقوة التيار المضاد. تضايقت جداً من إضاعة وقتها الثمين في جو مشحون بروائح السوائل المختلفة تحت إشراف لجان متعددة الجنسيات.

في اليوم التالي توجهت الى مكتب الادارة العامة بصحبة رفيقة درب الكفاح وأيام الدراسة الخوالي الآنسة برغوثة، ولكنهما ما إن شاهدتا المدير حتى عرفتا قصده وأنهما لا محالة ستمران بتجربة الشاي الشهيرة، فخرجتا مسرعتين.

بعد محاولات عديدة وتساؤلات مريرة تمكنتا من العثور على السلك الذي يمتد بين عمارتين شاهقتين. اعتقدت البعوضة وظنت أنها ملاقية طموحاتها الواسعة ومحققة أحلامها الكبيرة، وهي فقط على بعد خطوات معدودة من أبواب حلم طالما راودها وهي على مقاعد الدراسة، فزادت فرحتها كلما فكرت أنها ستقابل مديرها الجديد. ومن يعلم، سيتم تعيينها برتبة وزير مفوض أو سفير فوق العادة لدى بلاط السانت جيمس، أو على الأقل برتبة ملحق ثقافي أو حتى نسائي في باريس، أو في بنغلاديش أو جزر

القمر.

قبل دخولها مكتب المدير استقبلتها سكرتيرته الخاصة مرحبة بها بصوت ناعم لا يخلو من الدلع وهي تقول: أنا اسمي فراشة ولكن المدير يناديني يرقة.

بعد أن تحدثت بالتفصيل الى سعادة المدير عن لوعتها وهمومها وكفاحها المستمر من أجل إنهاء دراساتها العليا وخوضها معارك طاحنة مع أفراد عائلتها، تقف الآن في منتصف الطريق تتطلع نحو مستقبل أفضل لها وللبشرية جمعاء. طموحة تناطح النجوم في شموخها، مسرورة لأنها كسرت الحواجز والقيود، وها هي الآن تنطلق نحو آفاق أوسع. إنها على استعداد للنضال من أجل قضايا أمتها من خلال علمها وعملها.

ما إن انتهت من اختصار قصة حياتها، فإذا بها ترى وجه المدير قد عبس وشحب لونه وجثته انكمشت على بعضها وشواربه تنافرت. اعتدل في مقعده الوثير والغضب بادٍ في عينيه ينير جدران غرفته المظلمة، لأن الستائر دائماً مغلقة. تحدث بنبرة حزينة قال فيها إن الأوامر لم تصله بعد لفتح ثغرة اجتماعية وإنه لأول وهلة ظنها عاشقة ولهانة. ولما عرف مدى جديتها خاب ظنه وانتكس. أعلن بحكمته المعهودة أن ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، وأن البعوض على أشكاله يقع.

خرجت باكية ودموع حسرة الشباب في عينيها، جريحة تسحب أذيال الفشل، ضائعة في وطنها تطالب بالعدالة والمساواة. جرت الى الخارج مسرعة وأحلام الطفولة مشتتة بين شواطىء

الخليج وعلى قمم جبال الهجر، ومن شدة كراهيتها للواقع الذي يحيط بها نسيت كتابهاالمعنون باسم «مستقبل المرأة في بلادي» في مكتب المدير فعادت لاستعادته تيمناً بقدسية الكلمة الشريفة، دفعت الباب بقوة، لم تأبه لاحترام السلوك فرأت السكرتيرة جالسة في أحضان المدير والهاتف يرن دون مجيب.

****

الحقيقة

أقبلت «حقيقة» بقامتها الهيفاء الشامخة، تمشي رويداً رويداً وتسحب خلفها أطراف ثوب ناصع البياض، فنهضت الجماهير مندهشة من جمال وجهها البراق، ورشاقة جسدها، وعذوبة لسانها. استنشقت الجماهير بعد أن أمرت «حقيقة» عطراً زكياً ونسيماً ناعماً دغدغ مشاعر القلوب فالتهبت نيرانها.

مكثت «حقيقة» بين صفوف الشعوب الضعيفة وأنست لحبهم لها واستأنسوا بوجودها بينهم. ولنزاهة نفوسهم وبساطة معيشتهم قررت اتخاذ قلوبهم مقراً دائماً لها.

نشأت علاقة ود قوية وروابط حب وثيقة بين الشعب و«حقيقة»، وبما أن الاثنين لا يفترقان منذ الأزل، فقد رغب الشعب في الزواج منها تتويجاً للعلاقة القوية الصادقة والحب الشريف الذي يربط بينهما. يحبها ولا يستطيع مفارقتها للحظة، وإنه متأكد من أنها ستوافق ولن ترفض طلبه هذا، وهي التي تبادله مشاعر الود والاخلاص، إلا أن «حقيقة» فاجأته برفض طلبه من دون مبرر. غضب الشعب واستنكر ما جرى ولم يستوعب تصرفاتها، فكيف بحبيبته الوفية الغالية ترفض طلبه وتخيب آماله وتحطم أحلامه. أفنى ريعان شبابه وزهرة صباه يبحث عن «حقيقة»، واليوم تنبذه وسط ظلام دامس وهو في أمس الحاجة لها، في عالم يسوده الظلم والنفاق والخديعة. عندما وصلت هذه الأنباء الى مسامعها تعجبت من أطوار حبيبها وتساءلت عن مدى شكه

وظنونه في اخلاصها له، وهل ما زال حبيبها لا يعرفها جيداً؟ «إنها مجرد ظنون الخل بخليله» هذا ما قالته لأن ثقتها بنفسها وبحبيبها كبيرة، ثم أضافت «إنها نظرة الحب العميق المتبادل بيننا». أخبرته بأنها ستدرس مشروع الزواج فيما بعد ولو أنها تؤمن بأن حبها لا يقتصر على شعب من دون سواه، ولكنها على يقين بأن هناك فئات في المجتمع لا تحترمها ودائماً تحاول اغتصابها وتلطيخ سمعتها، وتكن لها مشاعر البغض والعداء، فلا بد من زيارتها لتوضيح المواقف الغامضة ومعرفة واقع حياتها.

طرقت الباب ودخلت على المجتمع الارستقراطي وهي مبتسمة كالعادة وتتلألأ رونقاً وجمالاً، فذهل الجالسون وقام الوزراء بمغازلتها لنيل ودها ورضاها حتى يحققوا ما يصبون إليه في ذلك بخلع أثمن وأغلى الهدايا عليها، لأنهم يعرفون أنها من عائلة فقيرة وستخدع ببريق الجواهر والألماس، ولكنها أدهشت الوزير بصراحتها المعهودة وهو يهم بوضع العقد الزمردي حول عنقها عندما سألته «من أين لك هذا؟».

تجمد الجميع في أماكنهم المخملية عجباً من صراحة لم يعتادوا عليها، وغضب الوزير وأصابه الحرج وتلعثم لسانه، لأنه اعتاد كل حياته على المراوغة واللف والدوران بعيداً عن تعاليم وأخلاق وطبائع «حقيقة» التي تكره الكذب والدجل والنفاق.

حاول الوزراء التحايل عليها والعبث بها وخداعها ومراوغتها، وعندما فشلوا أرادوا أن يتفقوا معها على هدنة من أهم شروطها الرئيسية ان تبتعد عن حياتهم كلياً اذا ابتعدوا عن حياتها ولم يتطرقوا إليها في أحاديثهم وأعمالهم.

تقيأت «حقيقة» من معيشة هؤلاء القوم عندما اكتشفت خفايا

قصورهم وأسرار طبقاتهم، وادركت أنه لا مكان لها بينهم، فهم يكرهونها ويستغلون اسمها ويجاملونها فقط اذا كانت في خدمة مصالحهم.

لملمت أطراف ثوبها الأبيض وخرجت مسرعة، لأن عالمها الذي اعتادت عليه لا يكمن هنا، إنما في قلوب الضعفاء والمحرومين والفقراء الكادحين في كل مكان. ولكن قبل الاحتفال بزواجها من الشعب قررت زيارة القصر لتشكو سوء تصرفات القوم الذين قابلتهم وتشرح كل ما رأت من نفاق وأوضاع معيشية متدهورة، حتى تأخذ المساواة طريق العدالة. وصلت باب القصر مع طلوع الفجر وطلبت مقابلة سيدة في الحال، لأن ماجاءت من أجله ضرورة لا تحتمل الانتظار. أخبروها أنها ستقابل سيدة القصر في الحال ولكنها انتظرت الى غروب الشمس، وعندما قابلها رحب بها واعتذر لها وأخبرها بأنه لم يكن على علم بمجيئها إلا قبل بضع ثوان وأنه سيفتح لها صدره، وما إن بدأت بسرد التفاصيل حتى اقشعر بدنه وعبس وجهه وغضب واتهمها بالوقاحة، فأمر الحراس بسجنها في زنزانة لا تبرحها إلا بأمره.

لقد تم سجنها في ليلة موعدها مع حبيبها. انتظر الشعب حبيبته بفارغ الصبر ومر وقت الموعد وبدأ الليل يسحب خيوطه و«حقيقة» لم تصل بعد!!!

****

(انتهـــــــــــــــى)

المحتويات